الفصل الخامس

الحالة الإقتصادية

لاشك أن كُردستان الوسطى قد شهدت تقدماً كبيراً في عهد الدولة الدوستكية في الحالة الإقتصادية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة بشكل نستطيع أن نعبّرعنه بـ(النهضة الإقتصادية) بمقاييس ذلك العصر. والسبب الرئيس لذلك التطور يعود الى ما حققته الدولة للشعب من حياة الأمن والإستقرار والإبتعاد عن الحروب وكوارثها. ويمكن أن نلمس هذه الحقيقة بعد إجراء مقارنة بين وضع كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي ووضعها في العهد الحمداني السابق. ففي العهد الأول (الحمداني) تعرضت كُردستان الى الدمار جراء الغارات والهجمات البيزنطية المتتالية، بسبب العداء المستحكم بين الحمدانيين والبيزنطيين. فقد دُمرت مدن مثل مدينة أرزن ودارا وأُحرقت القرى. أما المزارع فكانت تتلف، وفوق ذلك كله كان السكان يتعرضون للقتل والأسر والتشريد، مما كان يؤدي بدوره الى تحطيم وتدمير إقتصاد المنطقة. فقد ذكر إبن حوقل الذي عاش في عهد الحمدانيين وعاصر تلك الأحداث وذلك الدمار، حينما أشار الى هجومين لجيوش الدولة البيزنطية يساندهما الآلاف من فرسان بني حبيب (من بني تغلب)، الذين شردهم ظلم الحمدانيين من منطقة نصيبين الى البلاد البيزنطية تاركين دينهم وأصبحوا مسيحيين، بقوله: "... فشنوا الغارات على بلاد الإسلام وإقتحموا حصن منصور (أديمان) وحصن زياد (العزيز- ئالازاك) وساروا الى كفر توماثا، ودارا في (سهول ماردين) فأتوا عليه بالسبي والقتل... فصار لهم عادة... يخرجون في كل سنة عند أوان الغلات الى ان أتوا على ربض نصيبين... وتعدوا ذلك الى أن وصلوا الى جزيرة إبن عمر فأهلكوا نواحيها وسحقوا رأس العين... وعادوا الى ميافارقين وأرزن فخربوا قراها وعضدوا أشجارها وزروعها الى أن جعلت كالخاوية على عروشها"(١).

ولاشك إن حالة الحرب والدمار التي عاشتها كُردستان مدة حوالي نصف قرن من العهد الحمداني، قد أدت الى تأخر الزراعة والصناعة والتجارة والعمران والحالة الثقافية أيضاً. وبخلاف العهد الحمداني، فقد أنقذ العهد الدوستكي البلاد من الدمار، حيث أقبل عهد السلام والإستقرار. فبعد إنتهاء المرحلة التأسيسية لم تحدث مصادمة مع دولة أو إمارة مجاورة (من بداية سنة ٣٨٣هـ وحتى نهاية ٤١٧هـ) أي خلال (٣٥) سنة. كما لم تحدث مصادمة من (٤٢٧هـ الى ٤٧٦هـ) أي خلال

(١) إبن حوقل، صورة الأرض: موضوع نصيبين، ص١٩٢، لا نعلم بالتأكيد تاريخ الهجومين، فقد تكررت هجمات البيزنطيين على فارقين وأرزن ودمرتا مرات عديدة، كما شمل التدمير مراراً مناطق نصيبين ودارا وبالس وغيرها، منها هجومان في سنة (٣٣١هـ) وهجوم آخر في السنة التالية وفي سنة ٣٣٩ وسنة ٣٣٥ و٣٣٦ و٣٦١ وغيرها ولعله يقصد بهما ما حدث في سنة ٣٣١و٣٣٢. ومن أراد الوقوف على تفاصيل الهجمات البيزنطية على كُردستان بسبب سوء سياسة الحمدانيين، فليراجع المصادر التاريخية وأخبار سيف الدولة في حوادث السنوات المذكورة والسنوات الأخرى من فترة العهد الحمداني، كما أحيل القاريء الى أوائل هذا الجزء، موضوع أسس وطبيعة السياسة الخارجية للدولة الدوستكية.

(٤٩) سنة، وحتى زحف الجيوش السلجوقية على الدولة الدوستكية للقضاء عليها، هذا عدا إعتداء من مسلم بن قريش العقيلي(٢).

وقد كانت هذه حالة نادرة جداً بالنسبة لدول ذلك العصر المليء بالمعارك والحروب الدامية. فالإستقرار الذي لم تشهده أية دولة أو إمارة أخرى بالمنطقة، أدى الى إنصراف الشعب الى الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية والعمرانية. وهو ما أدى بدوره الى إزدهار الوضع الإقتصادي ورفع مستوى المعيشة.

لقد عملت الدولة الدوستكية في الواقع على بناء حياة جديدة في ذلك الجزء من كُردستان. وقد أشار الفارقي في تاريخه مراراً الى ما كان يتمتع به الشعب من الرخاء والرفاهية والحياة السعيدة والغنى فقال: "... وإستغنى الناس في أيامه (أي أيام نصرالدولة) وكان أحسن الأيام ودولته أحسن الدول"(٣).

وقال إن حالة فارقين وسكانها لم ترجع بعد سقوط الدولة الى زمانه، أي الى حوالي قرن كامل، الى (١٪) مما كانت عليه في عهد الملك الدوستكي نظام الدين(٤). ومما يؤكد على هذا التقدم، أن كثيراً من الناس والتجار قدموا الى مدينة فارقين وإستوطنوها، مما أدى الى إزدياد عدد سكانها وعمارتها(٥).

وممن أشار الى هذا التقدم الإقتصادي إبن الجوزي، حيث قال في ترجمة حياة نصرالدولة أحمد بن مروان: "... رخصت الأسعار في زمانه وتظاهر الناس بالأموال"(٦)، وهكذا قال إبن الأثير(٧).

لقد كانت أيام الدولة الدوستكية عصراً ذهبياً لذلك الجزء من البلاد الكُردية من كافة النواحي الإقتصادية والإجتماعية والعمرانية، وبزوالها زال ذلك العصر. وقد اعتبر (أبو طلحة النعماني) زوالها عمىً ونكبة نزلا بسكانها، فقال في مقامة له: "قلت فديار بكر، قال بلد فقر وجبل وعر. عمي إنسانها مذ ذهب مروانها"(٨)، أي منذ ذهبت دولة بني مروان الدوستكية. فرخص الأسعار للمواد الغذائية وغير الغذائية وتظاهر الناس بالغنى والثروة، إنما هو تعبير صادق عن إنتقال البلاد من حالة

(٢) وقعت بعض الحوادث خلال الفترة الثانية عبارة عن إستفزازات وتهديدات السلاجقة، التي أشرنا إليها في موضوع العلاقات مع الدولة السلجوقية، والتي لم يكن لها تأثير على الحالة الإقتصادية للبلاد. وحدثت أيضاً إغارة (الغز) السلاجقة ذات التأثير السيء والتي مر ذكرها بالتفصيل في الجزء الأول، ص٢١٣-٢١٥. كانت غارتهم عامة وشملت شهرزور ومنطقة الموصل وأذربيجان وغيرها.

(٣) الفارقي، ص١٦٦.

(٤) نفس المصدر، ص٢٠٤.

(٥) نفس المصدر، ص١٦٦.

(٦) إبن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٢٢٢.

(٧) إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٦.

(٨) العماد الاصبهاني، خريدة القصر، قسم العراق ج٢ ص٦. عن مقامة لأبي طلحة بن أحمد الذي كان حياً سنة ٥١٧هـ.

الحرب والبؤس والمجاعة... وعن تحول مناطق فارقين وأرزن وغيرهما من الخراب والدمار الى الإعمار والبناء.

وبسب التقدم الذي شهدته كُردستان الوسطى في كافة المجالات الإقتصادية والسياسية والإجتماعية وفي مجال السلام والإستقرار وغيرها، قال إبن كثير وبدر الدين العيني، أن بلاد نصرالدولة كانت "آمن البلاد وأكثرها عدلاً"(٩).

والأفضل أن نختتم هذه المقدمة بعبارة للطبيب إبن بطلان، الذي عاش في العراق وتجول في الشام ومصر والبلاد البيزنطية وقد وردت العبارة في مقدمة كتابه (دعوة الأطباء) الذي ألفه للأمير الدوستكي نصرالدولة. فقد أشار الطبيب الى ما شهدته البلاد من التقدم الإقتصادي في مجالات التجارة والزراعة والصناعة والعمارة أيضاً. وأشار الى كثرة الأعمال وفقدان البطالة، مما سبب رفع المستوى المعيشي والحالة الصحية، إضافة الى تقدم الطب فيها، فقال على لسان طبيب فارقين مايلي: "اليوم جمهور الحفارين والحمالين قد بعدوا عن هذه الديار وتشتتوا في القرى والأمصار وإشتغل أكثرهم في الروزجار وسوق العجل والفدان ونقل الجبصين من رؤوس الجبال... الناس متشاغلون بتصفيف الأقداح والقناني وإختيار الملاهي والغواني..."(١٠).

إلا أن عهد الإستقرار والعدل والسعادة هذا أفل بزوال الدولة الكُردية. فجثم على البلاد وشعبها السعيد عهد من الإضطرابات والظلم بكلكله في ظل الحكم السلجوقي. ففي خلال عشرين سنة فقط من زوال الدولة الدوستكية في (٤٧٨هـ الى ٥٠٢هـ) حكم البلاد تسعة ولاة من قبل السلاجقة، كان معظمهم قاسياً، حتى هدمت بيوت جماعة من سكان فارقين وتشردت منها جماعة وتفككت ولاية فارقين. ويشير الفارقي في (ص٢٨٤) الى ذلك بقوله: "وكل قليل يليها واحد وينهب ويصادر ويأخذ لأنه يتيقن أنه ليس بمقيم فأخذوا بلدها من دايرها وصادروا أهلها وخربت بيوتهم وإفتقروا". وفي سنة (٤٨٥هـ) أقام الوحش (تُتُش) بن آلب أرسلان مذبحة فظيعة في نصيبين حتى قال الفارقي في (ص٢٣٤) أنه: "قتل من أهلها ما لايحصى ونهب البلد أجمع وسبى الناس وجرى على أهل نصيبين

(٩) إبن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٨٧.

(١٠) إبن بطلان، دعوة الأطباء، المقدمة. (الروزجار) العمل في البناء والروزكاري عمال بناء الدور أي عمال المباني. وقد ذكر المقدسي في (أحسن التقاسيم، ص١٢١) ان (المنصور) عندما بنيت مدينة السلام كانت أجرة الأستاذ (أي البنّاء) وأجرة الروزكاري (أي العامل) الذي كان يشتغل على بناء المدينة - حبتين. وفي ص٣١: أن روزكاري و (فاعل) مترادفان، ومعلوم أن الفاعل هو (العامل) والروزجار هو تعريب العامل. (روزگار) في المنجد الراز والجمع رازة وهو رئيس البنائين. أما (الفدان) فيقصد به الزراعة كما يقصد بالحفارين والحمالين حفاري القبور وحمّالي جثث الموتى، كما يدل عليه سياق كلامه على لسان طبيب فارقين، الذي يشتكي من قلة الوفيات بسبب ارتفاع مستوى المعيشة وتمتع الناس بالصحة في عهد الأمير نصرالدولة. أى أن حفاري القبور ظلوا عاطلين عن العمل فأخذوا يمارسون أعمالاً أخرى كالإشتغال في أعمال البناء والتجارة بالعجول والزراعة وجمع كبريتات الكلس لبيعها لأغراض صناعية.

(جبصين): ويقال أيضاً جبسين وجفصين، وهو الكلس الحجري المصنوع من الكبريتات المائية الطبيعية المتبلورة. أيضاً راجع المهندس إدوارد غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج١، ص٢٥٠. يشير ابن بطلان بنقل الجبصين الى توسع أعمال الإنشاء والبناء أيضاً في العهد الدوستكي.

مـا لم يجر مـثله عـلى الكفـار". وفي سنة (٤٨٨هـ) ثار سكان آمد على حكم (تُتُش) الظالم ولكن الثورة أُخمدت. ولكن سياسة ملكشاه كانت بخلاف أخيه لينة كسياسة والده آلب أرسلان الى حد ما.

الزراعة

تعتبر كُردستان أقدم البلدان الزراعية، وقد أكد عدد من علماء الآثار أن قرية (جرمو) الواقعة في شرق چمچمال من محافظة كركوك، والتابعة الآن لمحافظة السليمانية، تعد أقدم القرى الزراعية في العالم. فقد عُثر فيها نتيجة التنقيبات الأثرية على آثار زراعية من الحنطة والشعير والعدس والحمص تعود الى تسعة آلاف سنة(١١).

كما تمثل آثار قرية (زەڤيا چەمێ) في قرية شانەدەر في بارزان أقدم قرية ظهرت فيها بوادر الزراعة وتدجين بعض الحيوانات قبل جرمو بثلاثة آلاف سنة. لقد حدث في كُردستان أول إنتقال للإنسان من مرحلة جمع القوت باليد الى الزراعة(١٢)، وهو يعد تطوراً كبيراً للحياة البشرية. لقد شهدت كُردستان الوسطى إنحطاطاً وتأخراً كبيرين في الزراعة في القرن العاشر الميلادي، أي في الفترة التي سبقت تأسيس الدولة الدوستكية. إذ عايش الفلاح الكُردي وضعاً سيئاً وإستغلالاً لم يشهد لهما مثيل من قبل. وبإمكاني القول بأن هذا الجزء من البلاد الكُردية لم يشهد ذلك التأخر الزراعي في القرون الثلاثة الماضية من الفتح الإسلامي للأسباب التالية:

١- الغارات البيزنطية المتتالية على هذا الجزء من كُردستان، ولاسيما مناطق دياربكر وفارقين وغرزان، وماردين. وكانت تلك الغارات تؤدي الى قتل وتشريد الفلاحين والى إتلاف المزارع والبساتين.

٢- سوء سياسة الحمدانيين: إذ كانوا يستغلون الفلاحين إستغلالاً فاحشاً، وفضلاً عن عدم تشجيعهم على الزراعة رفعوا مقدار الخراج الى نصف المحصول الزراعي والى أكثر من أربعة أخماسه في بعض الأحيان. وهو ما أدى الى فقر الفلاح وحرمانه. وكان كل من الأمير الحمداني ناصرالدولة وإبنه أبو تغلب يتفقان مع المزارع في نصيبين على نصف الوارد، ولكنهما كانا يقدران حصة المزارع حسب تقدير مجحف في البيدر، ويدفع عنها مقابل حصته مبلغاً قليلاً من النقود، بحيث كانت حصة الفلاح تنزل الى أقل من خمس المحصول الزراعي كله(١٣).

والى هذا أشار أيضاً الدكتور عبدالعزيز الدوري، حيث قال: "وفي زمن الحمدانيين قاست الجزيرة (أي بلاد الجزيرة) من كثرة الضرائب، فقد جعل ناصرالدولة نسبة المقاسمة النصف. ثم إنه كان في

(١١) طه باقر وفؤاد سفر، المرشد الى مواطن الحضارة، الرحلة الرابعة، ص١٦. بوشر في سنة ١٩٤٨ بالتنقيبات في جرمو من قبل بعثة تابعة لجامعة شيكاگو.

(١٢) نفس المصدر، الرحلة الخامسة، ص٢٠.

(١٣) إبن حوقل، صورة الأرض، حوالي ص١٩٣. والدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ص٣٣٥.

بعض الأحيان يقدر ثمن الغلة ويعطي الزارع ثمن حصته حسب تقديره فتكون النتيجة أن نصيب المزارع يكون أقل من الخمس"(١٤).

وهكذا كان الفلاح يعاني ظلماً كبيراً على أيدي الحمدانيين خلال حكمهم الذي دام في كُردستان حوالي نصف قرن. إذ كانوا يفرضون ضرائب ثقيلة متنوعة، ويغتصبون من الفلاحين أراضيهم، أو يجبرونهم على بيعها بثمن بخس. حتى إن ناصرالدولة إستملك البساتين والأراضي الزراعية في نصيبين كلها إلا قليلاً، فأصبح بذلك من أكبر الإقطاعيين في عصره. وبهذا الصدد قال إبن حوقل النصيبي: "ولم تزل (أي نصيبين) على ما ذكرته منذ أول الإسلام معروفة بكثرة الثمار ورخص الأسعار، تتضمن بمائة ألف دينار الى سنة ثلاثين وثلاثمائة (٣٣٠هـ)، فأكبّ عليها بنو حمدان بصنوف الظلم والعدوان ودقائق الجور والغشم وتجديد كلف لم يعرفوها ورسم نوائب ما عهدوها الى المطالبة ببيع الضياع والمسقف من العقار". وبعد أن ذكر تشرد بني حبيب فراراً من ظلم الحمدانيين الى البلاد البيزنطية، قال إن: "ناصرالدولة (الحسن بن عبدالله بن حمدان) إكتسح الأشجار المثمرة في بساتين نصيبين وزرع مكانها الحبوب. وإشترى من قوم وإغتصب من آخرين... وسلمها الى من بقي من أهلها ولم يمكنهم النهوض عنها وآثروا فطرة الإسلام ومحبة المنشأ وحيث قضوا لبانات الأيام والشباب على مقاسمة النصف من غلاتها الى أي نوع كان على أن يُقدّر الدخل وقيمته عيناً إن شاء أو وَرِقاً، ويعطي الحرّاث ثمن ما وجب له بحق المقاسمة، فيكون دون الخُمسَين ولم يزالوا على ذلك معه ومع ولده الغضنفر (أي أبي تغلب) الى أن لحقا بأسلافهما الدجالين..."(١٥).

أما الزراعة في فترة السيطرة البويهية القصيرة على كُردستان الوسطى (التي دامت من ٣٦٨هـ - ٣٧٢هـ) فقد ظلت على تأخرها وإنحطاطها، حيث لم تبذل الدولة البويهية جهداً في تقدمها وتحسين وضع الفلاح وتخفيف الضرائب وتخفيض نسبة الخراج (ضريبة الأرض) عنه، بل سارت على الطريقة الحمدانية نفسها. فمثلاً كان عامل البويهيين بنصيبين (إبن الراعي) يطبق ما سار عليه ناصرالدولة وأبو تغلب. فكان يدفع للفلاح ثمناً قليلاً عن حصته ولا يسمح له بأخذ شيء من المحصول إلا للبذار فقط، كما أوضح إبن حوقل (الذي عاصر الحمدانيين والبويهيين) ذلك. فقد قال بصدد البحث عن نصيبين، التي تتاخم الآن مدينة (قاميشلي) السورية الحديثة وكلا المدينتين تقعان على ضفة نهر هرماس (جغجغ): "وأهلها وقتنا هذا على أقبح ما كانوا عليه وفيه من تقدير وليهم عليهم كإبن الراعي لا رحمه الله ومن يشبهه يستغرق أكثر الغلة وتقويم ما يبقى من سهم المزارع بثمن يراه وحمل ما وقع بسهمه الى مخازنهم وأهرائهم ويرضخ له منه ما يسمح به لبذره ويقدر أنه ممسك لرمقه وعيشه في قوته"(١٦).

(١٤) الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص١٩٠.

(١٥) إبن حوقل، صورة الأرض، حوالي ص١٩٣. راجع أيضاً الدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية في حلب والموصل، ج١، ٣٣٥. وقد قتل أبو تغلب سنة ٣٦٩هـ وكانت الدولة البويهية قد أخرجت كُردستان الوسطى والموصل من يده في السنة السابقة.

(١٦) الفارقي، ص١٦٨.

أما زراعة الحنطة والشعير والعدس والحمص وغيرها وزراعة أشجار الفواكه والخضراوات في العهد الدوستكي، فلا بد بأنها شهدت تقدماً كبيراً. وذلك بسب الإستقرار وسياسة البلاد الناجحة في الداخل والخارج، والتي إتسمت بالمرونة تجاه الفلاحين وغيرهم. وإنطلاقاً من هذا فإنها (أي الدولة الدوستكية) لم تكلّف الفلاحين بالخراج الثقيل الذي كان يؤخذ منهم في العهود السابقة، وهذا هو المتوقع، رغم أنه لم يصل إلينا نص حول مقدار الخراج أو ضريبة الأرض الزراعية. كما ونلاحظ التقدم وتحسين وضع الفلاح في مواضيع عديدة من تاريخ الفارقي، وقد أشرنا في بداية هذا الموضوع الى بعضها مثل كون نصرالدولة لم يظلم طوال فترة حكمه البالغة أكثر من خمسين سنة أحداً، ولم يأخذ درهماً واحداً من أبناء شعبه، سوى قيامه بمصادرة أموال التاجر إبن جرى(١٧)، وأخذه أموالاً كثيرة من القاضي أبي علي بن البغل(١٨) على سبيل المصادرة، حيث شك في إخلاصهما للدولة وذلك بوشاية من بعض المنافقين. ونلاحظ ذلك أيضاً مما ذكره الفارقي وغيره مما شاهدته البلاد من رخص الأسعار وتظاهر الناس بالغنى والأموال كما سلف. ونلاحظ ذلك التقدم الزراعي وغيره أيضاً في مباهاة وتفاخر الملك الدوستكي نظام الدين بكثرة فلاحي بلاده وبضياعها ومزارعها العامرة، وكثرة بساتينها وخيراتها من زراعية وغير زراعية، وسروره بعمارة بلاده وتقدمها. وقد أبدى نظام الدين سروره هذا وتفاخره وذكر مزايا بلاده للأمير الكُردي أبي الهيجاء أمير (أربيل)، الذي بعثه السلطان السلجوقي الى نظام الدين لتزويده بمبلغ من المال. فقال نظام الدين لأبي الهيجاء وظن أن لايسلم إليه المبلغ مما يجلب نقمة السلطان عليه: "... ياولدي ما رأيت عمارة بلادي وكثرة خيراتها وبساتينها وكثرة فلاحيها وعمارة ضياعها؟ أتراني كنت أتلف هذا كله من أجل ثلاثين ألف دينار"(١٩). ثم سلم إليه المبلغ المذكور في اليوم الرابع.

ومما يدل على كثرة الإنتاج الزراعي ووفرة الحبوب ما ذكره عدد من المؤرخين من أن نصرالدولة كان يأمر في الشتاء بفتح الأهراء، أي مخازن الحبوب وإلقاء الحبوب للطيور البرية، فتكون في ضيافته طوال الشتاء(٢٠). وذكر الفارقي في (ص٩٥) مخازن الحبوب في مدينة أرزن (غەرزان) بـ(بيوت الغلال).

(١٧) الفارقي، ص١٧٤.

(١٨) إبن حوقل، صورة الأرض، حوالي ص٢١٣. قتل إبن الراعي سنة (٣٧٢هـ) حيث ثار عليه سكان نصيبين وانضموا الى الأمير پاد. وقد مر التفصيل في الجزء الأول: موضوع ثورة نصيبين.

(١٩) أسامة بن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨٧-٨٨، تحدث لأسامة بذلك الأمير فضل بن أبي الهيجاء وذكر أن السلطان كان ملشكاه. ولكني أرى أنه والده آلب إرسلان، الذي توجه سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م) الى بلاد الشام عن طريق دياربكر. أما ملكشاه فلم يحدث له ذلك وذكر الحديث تحت باب (تعقّل صاحب دياربكر)، فقال إن الأمير نظام الدين أبقى أبا الهيجاء عنده أربعة أيام، وفي كل يوم كان نظام الدين يأمر بإدخال أبي الهيجاء حماماً كانت جميع أدواته من الفضة وتهدى إليه في كل يوم أدوات الحمام الفضية مع بدلة ثياب فاخرة كل منها أفضل من أدوات الحمام وثياب اليوم السابق. أما أبو الهيجاء فهو الأمير الكُردي إبن الأمير (موسك) الهذباني أمير أربيل، الذي قاتل سنة (٤٩٩هـ) بجانب الأمير جكرمش (جگەرمژ) أمير جزيرة بوتان (جزيرة إبن عمر)، جيش السلطان محمد بن ملكشاه حينما زحف على الموصل.

أهم المناطق الزراعية

كانت في البلاد الدوستكية سهول خصبة جداً لزراعة الحنطة والشعير وغيرها من الحبوب، مثل السهول الواقعة في شرق دجلة، وتلك الواقعة بين مدينة دياربكر ومدينة حاني (هيّنىّ) ولجىّ وسهول فارقين وبشيرىّ وأرزن الى سعرد، وسهل مشار في شرقي (طنزه) وسهل (قردا) بين دجلة وجبل الجودي (سهل سلوپي)، وسهل (باهدرا) أي سهل سليڤاني الذي يمتد من پيشخابور حتى مدينة دهوك. وفي غرب دجلة سهول فسيحة في ولاية أورفا (الرها) وماردين ورأس العين (سەروكانى)، التي تنبع منها أكثر من (٣٠٠) عين ماء، وسهول نصيبين (نسيبين) وماردين وقسم من سهول قاميشلي السورية، التي كانت ضمن سهول نصيبين والتي كانت تمتد من مدينة نصيبين وحتى الجزيرة بطول (٩٠) كلم، والى جنوب مدينة ديّرک (مركز قضاء المالكية) السوري الذي كان يدخل ضمن سهل (بازبدا)، كما كانت مديني الجزيرة و(هەزەخ) ضمن ذلك السهل، والحد الغربي لبازبدا كان جبل إيلم (علم السلطان أو علم الشيطان) في حدود منطقة طورعبدين (طورىّ) وحده الشمالي والشرقي نهر دجلة. وهي سهول خصبة جداً بسبب تربتها البركانية. أما سهول خلاط ومنازجرد (مەلازگر) وموش فمعروفة أيضاً بخصوبتها. وتعتمد كافة تلك السهول في زراعة الحبوب على مياه الأمطار، إذ تسقط عليها كميات كافية من الأمطار لمناخها وقربها من الجبال، كما تكثر فيها عيون الماء إضافة الى مجموعة من الأنهار منها: نهر بليخ في أورفا، وخابور رأس العين وهرماس في نصيبين أي نهر (جغجغ) الذي يلتقي بالخابور، وسقلان (سەقلانىّ مەما) الذي يتكون من عيون ماء منطقة بازبدا الكثيرة ويصب في دجلة أسفل مدينة الجزيرة.

أما أهم أنهار شرق دجلة فنهر عنبار (أنبر- نهر الحو) شرقي دياربكر بـ(٢١) كم والقادم من مدينة (حاني)، ونهر باطمان (ساتيدما)، ونهر غەرزان (أرزن) وهو نهر (سربط)، ونهر بۆتان (الرزم) ويعرف أيضاً بالفرع الشرقي لنهر دجلة، ثم نهر (رۆسۆر)، ونهر بينات (باعيناثا) في جنوب شرق فندك، ثم نهر فنك، وبورى (بويار) الذي يصب في دجلة بالقرب من مدينة الجزيرة، ثم نهر نيّردۆش (نهر دوشا) الذي يكون الحد الغربي من سهل (سلۆپى) (سهل قردا)، ثم نهر هيزل وخابور زاخو.

ومن المحتمل بأن حراثة الأرض التي شاهدتها أنا بإسم (كوتان) كانت موجودة في العهد الدوستكي في المناطق الواقعة ما وراء بدليس، في سهول موش وخلاط ومەلازگر وأرديش (وان) وغيرها، هي الحراثة بأربعة ثيران أو جواميس أو أكثر وكانت حراثة فعالة. وقد ذكر المقدسي هذا

(٢٠) هؤلاء المؤرخون هم: إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٨، حوادث سنة ٤٥٣هـ. وإبن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٨٧. والخزرجي، التبر المسبوك، مخطوطة، ورقة ٢٨. الأهراء: جمع هري وهو بيت كبير تُخزن فيه الحنطة. وهي كلمة لاتينية كما في المنجد مادة (هري). ومن الجدير بالذكر أن الكُرد يحفظون الحنطة والشعير في حفر عمودية بعمق حوالي مترين وبقطر حوالي متر واحد، ثم يغطون فوهة الحفرة بالطين والتبن كيلا يؤثر المطر فيها. وتسمى (چالە گەنم). وفي عام ١٩٧٧ رأيت في منطقة فارقين الزراعية نوعاً اخر لم أجده في أي مكان آخر، حيث كانت الحفرة على شكل خندق بطول حوالي عشرة أمتار أو أكثر يغطى بهيكل جملوني (زنجي) تتم تغطيته بطبقة من الطين.

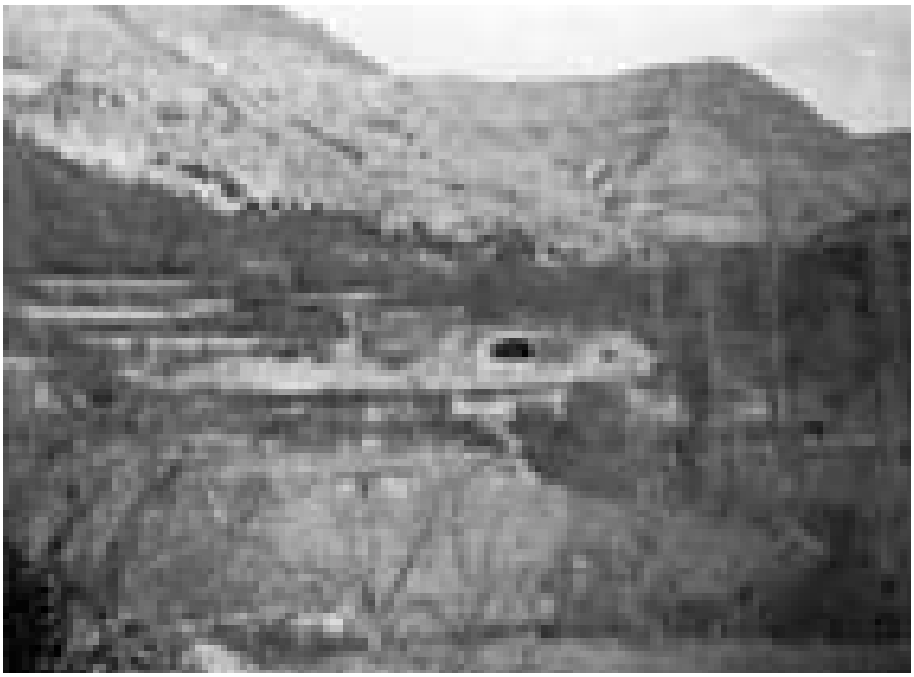

باعيناثا

النوع من الحراثة في منطقة دبيل من أرمينيا وكانت تحت نفوذ الكُرد آنذاك. وقال بأن الفلاحين كانوا يزرعون ويحرثون بثمانية ثيران وأربعة سواق وذلك في (ص٣٨١، من كتابه أحسن التقاسيم). وكان هذا النوع من الحراثة موجوداً حتى خمسينيات القرن العشرين، وقد شاهدتها شخصياً في بعض تلك المناطق.

هذا وكانت تُزرع في كُردستان في عهد الدولة الدوستكية وقبلها الحنطة والشعير والأرز والسمسم والقطاني (جمع قطنية أي الحبوب ذات الفلقتين) من العدس والحمص والبقول، الى جانب القطن الذي كان يزرع في تلك البلاد.

أما مقدار الإنتاج الزراعي السنوي في البلاد الدوستكية فلم تصل إلينا أرقام إحصائية بشأنه، إذ لم يذكرها المؤرخون حتى الفارقي نفسه. لكن الجغرافي إبن حوقل النصيبي ذكر أرقاماً للإنتاج الزراعي السنوي لعدد من المناطق الكُردية (وهي تعود الى العهد الحمداني والى سنة ٣٥٨هـ = ٩٦٨م بالذات التي زار فيها إبن حوقل الموصل ونصيبين) وتتعلق بمقدار (الحاصل) السنوي أي حصة الدولة حسب نظام المقاسمة بالنصف. فهي إذن لنصف الإنتاج الذي يعلم منه مقدار الإنتاج الكلي لتلك السنة، أي قبل العهد الدوستكي بأربع عشرة سنة، وتلك المناطق هي نصيبين، ورستاق،

و(أبنين)[٢١] الواقعة شمال غرب نصيبين داخل ولاية ماردين والمجاورة لطورعبدين، ومنطقة بازبدى ومنطقة قردى الى حدود باعيناثا[٢٢] الى طنزى[٢٣] وشاتان[٢٤] وباهدرا[٢٥]، أي المنطقة الممتدة من دهوك الى النهاية الشمالية أو الشمالية الغربية من بوتان، أي الى نهر الرزم (نهر بۆتان) الذي يجري في جنوب مدينة سعرد ويلتقي بدجلة عند قرية (تلانيڤ رووا - تل فافان) وطول المنطقة حوالى

(٢١) يسميها الكُرد حالياً (بنبين) وهي قرية مسيحية بين مدينة ماردين أي في شرقها وبين محصرتي (مەحسەرتێ) الواقعة بمسافة حوالي عشرين كيلومتراً شرق ماردين بإتجاه طورعبدين. فرستاق (أبنين) تشمل قرى في الجبل والسهل الواقع أمامه وبمحاذاته.

(٢٢) باعيناثا: هي غير باعيناثا الواقعة في غرب دجلة في شمال غرب الموصل، وهذه هي باعيناثا بوتان الواقعة في شمال غرب (فنك)، وفي شرق دجلة بحوالي أربع كيلومترات جنوب شرق (فندك)، وهي تقع عند النهاية الشمالية لواد جميل وتسمى بالكُردية (بينات). ينبع منها عند عەوينا التي بجنبها الأيسر نهر يصب في دجلة مقابل قرية (بافى). وهذه القرية (باعيناثا) كانت في عهد المقدسي مدينة مكونة من خمس وعشرين محلة كما وصفها. ويسمى نهرها حالياً بنهر (زيوى) (ڕوبارا زێوێ) ، وفي واديها غابة كبيرة من أشجار الصنوبر الطبيعية وعلى جانبيه أيضاً، وفيه كذلك الكثير من أشجار الزيتون وبساتين كثيرة لقرى بينات وعەوينا وبۆنسرا وزێوێ. وبالقرب من بينات في الوادي آثار جامع (٥٠ ,١٥×١٢م) ومنارة ومدرسة من القرون الوسطى، مما يدل على صحة قول المقدسي في (ص١٣٩، أحسن التقاسيم). وقد صورت هذه الآثار في التاسع من تموز ١٩٧٧، وكذا كهوف زێوێ (ئۆلێێ شێخان) وهي على شكل أربعة طوابق وإعتبرها (لايارد) مقبرة من العهد الأشكاني في كُردستان (١٢٧ ق.م الى ٢٢٧ ب.م). وتقع قريتي ومسقط رأسي (زڤنگ - زڤنگا حاجى عەليان) في شمال باعيناثا. وقد سمى بعض الجغرافيين نهرها بـ(نهر باسانفا) وهو خطأ، ولعلهم يقصدون نهير شوي (شەوێ) الذي يجري شرق مدينة قرية (باسا) وبين مصب النهرين أكثر من (٥) كلم. جدير بالذكر أن الطريق يمر في نفق صخري أسفل الكهوف كُتب عليه (هذا ما نقب الحاجي؟ بن محمد).

(٢٣) طنزى - طنزه: هي قرية (طانزه) الحالية الواقعة غرب (سهل مشار) وشرق نقطة إلتقاء نهر الرزم بدجلة. كانت فيها مدرسة شهيرة نشأ منها علماء أفاضل مثل يحيى بن سلامة الحصكفي، مفتي فارقين في القرن الثاني عشر، ومروان إبن سلامة تلميذ الغزالي. زرت القرية في ٩٧٧/٨/١٦ وشاهدت مدرستها القديمة، التي كان فيها في عهد الأمير بدرخان أمير بوتان سنة (١٢٦٣هـ = ١٨٤٧م) بالذات مائة وثلاثون طالباً منهم الشيخ خالد الزيباري على ما كتبه في نهاية مخطوطة بخطه. صورت مدرستها التي فيها قبور بعض من أمراء بوتان فرع طانزه. أما سهل مشار، فيمتد من شرقيها نحو الشرق. وطانزه مشهورة بكثرة بساتينها وكانت مركز هذا الجزء من بوتان في عهد إمارة بوتان، والتفاصيل في كتابي المخطوط (گەشتەكێ ئەركيۆلۆجى دكورستانا باكوردا- هاڤينا ١٩٧٧).

(٢٤) شاتان: راجع بخصوصها موضوع الحياة البشرية.

(٢٥) باهدرا: حددها إبن حوقل في (ص١٩٧، صورة الأرض) بأنها تمتد من (المغيثة) الى الخابور، ومن معلثايا (ملطا- الواقعة حالياً بالقرب من النهاية الغربية لمدينة دهوك كانت في العهد الآشوري مركز المنطقة وفيها تل أثري وآثار سور المدينة تُشاهد على الجانب الشمالي من وادي دهوك، وقد صورته في ١٩٩٥) الى (فيشخابور) أي پيشخابور حيث مثلث الحدود العراقية التركية السورية. فكل من دهوك وزاخو تدخلان ضمن باهدرا مع جبل (بيخير) وسلسلة الجبل الأبيض (چيايى سپي). والإسم جاء من بيت هدرا- بيت حضرا أي (دار الحضارة). وكان فيها (مرعيث) مسيحي. وكانت توجد في ملطا مدرسة مسيحية نشأ منها علماء أفاضل وكان (نرسي) الملقب بـ(لسان المشرق) من قرية (عين دەلبێ- عين الدالية) الواقعة في غرب ملطا بحوالي خمسة كيلومترات. أما دهوك وهي مركز محافظة دهوك الآن الممتدة من زاخو الى الزاب الكبير، فلم تكن سوى قرية في العهد الإسلامي. وفي ١٩٨٢/٤/١ إكتُشف أصلها للمرة الأولى من قبلي، وهو تل على الجانب الشرقي للنهر داخل المدينة. كانت المدينة في العهد الأشكاني مركزاً للمنطقة. وفي ١٩٩٥/٥/٢٥ إكتشفت آثارها في الجانب الشرقي من مضيق دهوك لأول مرة أيضاً، وإكتشفت أسوارها أيضاً إضافة الى معبدها الزردشتي (شكەفتا چارستون) العظيم، الذي ألفنا كتاباً بخصوصه لم ينشر بعد. وقد نُحتت على واجهة الكهف (المعبد) رموز زردشتية وأعتبر ذلك من أهم إكتشافاتي الأثرية.

تل فافان

(٢٥٠) كيلومتراً وتل فافان كانت موجودة في العهد الآشوري.

نظراً لأهمية إحصائية إبن حوقل التي ذكرها في (صورة الأرض، الصفحات: ١٩٤-١٩٥، ١٩٧-١٩٨. للإنتاج الزراعي للمناطق المذكورة قبل العهد الدوستكي بأربع عشرة سنة، ندرجها فيما يلي بشكل قائمة. علماً أن الإنتاج مقدّر بالـ(كُرّ)، الذي كان أكبر كيل ويساوي طناً وثمانين كيلوغراماً، وكان سعر الكُرّ من الحنطة والشعير (٥٠٠) درهم وتساوي (١٢, ٣٣) ديناراً، بما أن الدينار كان يساوي حينذاك خمسة عشر درهماً.

المنطقة	حصة الدولة بالكُرّ	الإنتاج الكلي بالكر
نصيبين	١٠٠٠٠	٢٠٠٠٠
رستاق أبنين	٢٠٠٠	٤٠٠٠
بازبدا	٢٠٠٠	٤٠٠٠
قردا-باعيناثا		
طنزي -شاتان	٣٠٠٠	٦٠٠٠
باهدرا	٣٠٠٠	٦٠٠٠

أما بالنسبة للإنتاج السنوي من القمح لبعض القرى، فقد ذكر الفارقي في (ص١١٥) أن إنتاج قرية (عطشا) كان (٣٦٠) جريباً أي ما يساوي (٢٥) طناً و(٩٢٠) كيلوغراماً. وقد جعل نصرالدولة إنتاجها وقفاً للقفراء والمساكين كان مستمراً حتى زمن الفارقي، الذي ألف تاريخه (تاريخ ميافارقين وآمد) سنة ٥٧٢هـ، أي بعد وفاة نصرالدولة بـ(١١٩) سنة. أما إبن حوقل فقد ذكر في (ص١٩٦) أن بعض القرى في قردا وبازبدا تنتج ألف كُرّ سنوياً من الحنطة والشعير والقطّاني أي

العدس والحمص والبقول وغيرها من ذوات الفلقتين، والذي يساوي ألفاً وثمانين طناً.

القطن

كانت زراعة القطن موجودة في العهد الدوستكي وقبله بكثير وقد ذكر إبن حوقل في (ص١٩٣-١٩٦) في منطقة نصيبين على ضفاف هرماس[٢٦] وبازبدا وقردا، وكذلك في رأس العين والمدن

(٢٦) لم يبق حول نصيبين الآن شيء من بساتينها التي إشتهرت بها في القرون الوسطى، بل أصبحت تُستغل لزراعة القطن. وفي ١٩٩٥ و١٩٩٦ مكثت فيها أياماً، فوجدت البساتين تنحصر فقط في الوادي الجميل الواقع خلف المدينة، الذي يجري فيه النهر وينبع من نهايته الشمالية المسماة (سەرەكانى) فرع من النهر وهو صاف رقراق ويلتقي بالنهر في أسفل منبعه فرع آخر ينبع من الوادي الواقع في يمين الوادي الأول ويسمى (گەلى دێرشكێ)، إلا أن ماءه غير صاف فيه بعض المعادن. وفي وادي سەرەكانى شاهدت قناطر في طرفه الشرقي تسمى (بازنێ تاقان)، ولعلها هي نفسها القناطر الرومانية البيزنطية التي ذكرها اليعقوبي في القرن التاسع في كتابه (كتاب البلدان، ص١١٣) وقال فيه أن: "نصيبين مدينة عظيمة كثيرة الأنهار والجنان والبساتين وأهلها قوم من ربيعة من بني تغلب"، وسكان المدينة حالياً جلّهم من الكُرد. وكان أبناء عشيرة (ئومەرى) أقوى سكانها، ولكن قسماً منهم تشردوا الى المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط. كما تشرد الى نصيبين الكثير من سكان بوتان. ولايفصل نصيبين عن القامشلي الكُردية في سوريا سوى خط الحدود. هذا وقد تم إدخال قسم من المدينة ضمن الحدود السورية، ويوجد الآن بعض من آثار سورها في القسم الجنوبي من المدينة الحالية عند الحدود الى جانب وجود جزء آخر من السور المذكور على الضفة الغربية للنهر عند نقطة دخوله الأراضي السورية. كانت المدينة القديمة تبعد بحوالي (١٨) كلم جنوباً عن جبل هرماس، الذي يسمى الآن بجبل (باگوك). وعلى الجبل قلعة تسمى (كەلها دالين) التي تقع شمالي (سەرەكانى). وفي تاريخ الفارقي (ص٢١٠) أن قلعة (بالوصا) على رأس الهرماس، أي على الجبل المطل على منبع النهر. فلا نعلم هل أن المقصود بقلعة (دالين) هي قلعة بالوصا التي كانت تشكل حدوداً بين ديار ربيعة وديار بكر، أم أنها قلعة (بارين) هذا علماً بأن هناك قرية بإسم (مارين) تقع في سلسلة باگوك وبمسافة حوالي (٢٥) كلم الى الشرق من نصيبين، تسكنها حوالي (٥٠-٦٠) أسرة. وهي قرية قديمة حيث يعثر فيها على مواد أثرية إضافة الى كون إسمها قريباً من إسم (بعرين)، التي كانت تعد من ضمن ديار بكر لا ديار ربيعة كما ورد في الصفحات المذكورة من تاريخ الفارقي. وبخصوص المعلومات المذكورة إستفدت من المعلومات الشخصية للسيد بشير محمد طاهر من سكان نصيبين في ١٩٩٨/٣/١٥. وفي شباط عام ٢٠٠٠ ذكر لي السيد عبدالهادي محمد نوري شيخ عەمّانى معلومات قيّمة عن القلاع والآثار الموجودة فوق نصيبين، أي على جوانب وادي نصيبين (وادي هرماس-گەلى بۆنسرێ) الذي يبلغ طوله سبعة كيلومترات وينتهي بمنبع النهر. ومن تلك الآثار قلعة بونسرا (كەلها بۆنسرا)، التي تقع على تل مرتفع في قرية بۆنسرا الواقعة على الطرف الغربي من نهر جغجغ (هرماس). وتعتبر القرية المذكورة ثاني القرى بعد قرية (شانشين) في وادي هرماس من الجهة الغربية، سكانها من عشيرة (دەک شورى). وقلعة أخرى هي قلعة (شيخ عتمان) القريبة والواقعة في شمال بونسرا بنفس إتجاه النهر. وتسكن في قرية شيخ عتمان عشرون أسرة من عشيرة هەوێركى، وفي شمالها الغربي قريباً هناك قلعة (قەرە تاژين) المبنية بالحجر والجص. وفي شمالها قلعة (ماساري) المبنية هي الأخرى بالحجر والجص والتي تقع في قرية (ماسار) التي في شمالها واد يسمى (گەلى دێرشكێ) الذي ينبع منه (ئاڤا رِەش- الماء الأسود) الحاوي على المعادن، ويلتقي هذا بـ(ئاڤا سپى-الماء الأبيض) في أسفل (سەرەكانى- سەرى كەهينێ). أما (سەرەكانى - رأس العين) فينبع من نهاية وادي نصيبين الجميل وهو منبع (هرماس) كذلك. وفوق المنبع المذكور قلعة بيري (كەلها بێرێ) في الجبل، حيث يصعد طريق قديم من النبع في الجبل الى دزاه ويتجه الى منطقة طورعبدين (طورى). الطريق المذكورة منحوتة في صخور الجبل في بعض أقسامها وذلك بإستخدام المتفجرات، ولابد بأن ذلك تم في العهد العثماني لغرض توسيعه، كي تسير فيه العربات التي تجرها الخيول. مدينة (مديات) تقع خلف الجبل المذكور بمسافة حوالي (٣٠) كلم. ولنعد الى أسفل الوادي، حيث توجد قرب نصيبين على الجانب الشرقي للوادي قرية (باوەرنێ) وفوقها قرية (گورين) وفوقها (بازنێ تاقان)، حيث توجد على الجانب الشرقي للوادي أقواس لبناية قديمة كنت قد صورتها وقال عنها عبد الهادي بأنها معروفة بـ(دير). وبالقرب من المكان شرقاً ثلاثة كهوف فيها مساطب لوضع الجثث، أي أنها قبور قديمة ربما من=

سەرەکانی

الواقعة على خابورها مثل ماكسين، والمجدل، وعرابان، وحران. وقد ذكر الأصطخري في (مسالك الممالك، ص٨٢) بأن أغلب زراعة رأس العين هي من القطن، مع كثرة أشجار الفواكه فيها لخصب أرضها. معظم الأراضي الواقعة حالياً حول نصيبين تزرع قطناً وتُسقى من مياه (هرماس). وقد إعتبر الأصطخري نصيبين "أنزه بلد بالجزيرة وأكثرها خضرة" وبأن لها "مباخس كثيرة"، ويقصد الأراضي الديمية الكثيرة التي لاتصلها مياه نهر (چغچغ – چقچق) النابع من جبل بالوسا (أي جبل باگوك). وذكر أيضاً بأن مدينة خلاط تستورد كميات كبيرة من قطن مدن خابور. كما أشار حمد الله المستوفي أيضاً في (نزهة القلوب، ص١٠٣) الى زراعة القطن في منطقة أرزن (غەرزان) ووصف قطنها بالجودة.

كانت زراعة القطن في كُردستان قديمة، فقد ذكر أستاذي سعيد الديوەچي المؤرخ الموصلي الجليل في كتابه (أعلام صناعة المواصلة، ص٣٤) أن: الآشوريين جلبوا بذور القطن والكتان من الهند وزرعوها. أما آدم متز فقد ذكر في (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ص٣٥٦) أن القطن حُمل من الهند شمالاً مباشرة قبل أن ينتقل غرباً وشرقاً بزمن طويل، وأنه لم يكن يُزرع في العراق وإنما نُقل إليه من شمال فارس وما بين النهرين (أي من المناطق الواقعة بين دجلة والفرات في شمال العراق ومعظمها مناطق كُردية). ويقصد متز بذلك أن زراعته إنتشرت في القرن العاشر الميلادي وقد نشره الحمدانيون على الفلاحين رغم ما عُرف عنهم من الجور وعدم الإكتراث بالأشجار، كما إنتشر في القرن المذكور في شمال أفريقيا. وأشار الى أن القطن لم يكن معروفاً في الصين في القرن الثالث عشر.

=العهد الأشكاني، وفي شرقها آثار لقرية (عينى) وفيها (١٥) كهفاً. أما جبل (باگوك) فيمثل القسم الشرقي من الجبل المطل على وادي (سەرەكانى) وهو يمتد شرقاً. وكانت (نصيبين الروم) تقع على الجانب الشرقي من الفرات وتابعة لآمد.

أما بالنسبة لزراعة الرز، فكانت موجودة في كُردستان في عهد الدولة الدوستكية وقبله بكثير فقد ذكر عالم الآثار (ليو أوبنهايم) في كتابه (بلاد مابين النهرين، ص٥٧) أن: أهالي فارس على مايقال أدخلوا زراعة الرز الى بلاد بابل. وعلى ذلك يُتوقع وصوله الى كُردستان في ذلك العصر، أي في القرن السادس قبل الميلاد أو قبله. أما السمسم فزراعته قديمة، حيث كان موجوداً في العراق في الألف الثالث قبل الميلاد.

الفواكه

أما الفواكه فكانت كما هي اليوم منتشرة وكانت تجري زراعتها في كافة مناطق الدولة الدوستكية. وأهم مناطق زراعة الكروم هي المناطق الجبلية وبالدرجة الأولى منطقة طورى (طورعبدين) الواقعة في غرب دجلة وشرق ماردين، وفي مناطق بوتان، وشيروان وهيزان ومناطق حاني، ولجى، وكولب (قلپ)، وبدليس وزاخو وغيرها وكانت توجد في كُردستان أنواع عديدة من الفواكه كالعنب بمختلف أنواعه والتين والتفاح والكمثرى والإجاص والخوخ والمشمش والرمان والسفرجل. وقد أشار الفارقي في (ص ٢٢٤-٢٢٥) الى ما كان حول مدينة فارقين من الكروم وبساتين الفواكه والخضروات والبقول. وقد جلبت كثرة العنب ورخص أسعاره إنتباه الرحالة الفارسي ناصر خسرو في مدينة أرزن في العهد الدوستكي. فقد قال المذكور أن البرسيين أي الزردشتيين كانوا يبيعون مائة (مَن) من العنب بدينار واحد في شهر تشرين الثاني (أي في أواخر الخريف). وقال إنهم يسمون العنب بـ(رز أرمانوس)(٢٧). من الجدير بالذكر أن الفاكهة كانت موجودة في كُردستان منذ العهد الآشوري (٩١١-٦١٢ ق.م) لوجود رسوم للعنب وكذا التين على العديد من الآثار الآشورية(٢٨)، وبدليل وجود العنب البري في كُردستان. ويذكر أن الخمر كان يستخرج من العنب في المناطق الكُردية شمال بلاد الرافدين ومنها في منطقة طورعبدين (أسالوا القديمة) ويصّدر الى بابل في القرنين السادس والسابع قبل الميلاد، وكان خمر عنب (كورانو) أغلى سبعة أضعاف من خمر التمور(٢٩). وبهذا الدليل ندحض ما ذكره آدم متز

(٢٧) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٧. ومن المحتمل بأن ناصر خسرو خطأ في تسمية العنب المذكور، لأن (رَز) بالكُردية تعني بستان الكرم وليس بمعنى العنب، وأظن بأن (رز أرمانوس) هو إسم لبستان أو بساتين كروم معينة في غرزان (ئەرزەن). أما إذا كان حرف الباء من أصل الكلمة، فتكون (برز) فإنها تعني بالفارسية بستان الكرم.

(٢٨) راجع اللوحات ٥٤ . ٥٥ . ١١٠ من (D.R. BARNET/ ASSURIAN PALACE RELEIFE. LONDON.) راجع أيضاً جورج كونتينو، الحياة اليومية في بلاد آشور وبابل، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، طبعة بغداد ١٩٧٩. وفي ص٩١ أن: أشجار الكروم وصلت حديثاً الى بلاد آشور أي خلال العهد الآشوري. وفي ص١٤٣ و ٩٠: كانت فواكه الرمان وثمر المشملة والتفاح والأجاص والمشمش والكمثرى والفستق والرمان والخوخ موجودة في العهد الآشوري بشمال بلاد الرافدين، أي في كُردستان.

(٢٩) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٢٩٨. يعزو آدم متز الى الإصطخري في (مسالك الممالك، ص٢٦٦) قوله بأن العنب الطائفي نُقل بالأصل من الطائف بالجزيرة العربية الى العراق وخراسان في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي. ولكنني راجعت كتاب الإصطخري المذكور، فلم أجد فيه أية إشارة الى ما نسبه إليه آدم متز، الذي أخذ بقوله باحثون في وقتنا هذا. فالإصطخري لا يزيد على قوله (والزبيب الطائفي الذي يُحمل الى الآفاق معظمه يرتفع من مالن وكروخ) من مدن خراسان. ولعل إسم هذا النوع من العنب هو الذي يوهم بأنه إنتشر في الأصل من منطقة الطائف بالجزيرة العربية، والذي يكثر في كُردستان بعدة أنواع.

من أن الذين أدخلوا العنب الى بلاد العراق وإيران هم المقدونيون، وقد عزاه متز الى سترابو(٣٠).

ومن الفواكة النادرة التي كانت موجودة في كُردستان في العهد الدوستكي (شاه بلوط) أو (كستناء) وكانت موجودة في نصيبين، فقد أشار إليها المقدسي(٣١). ولا زالت موجودة الى الآن، ولكن لاندري هل إن الفواكه النادرة الموجودة في هيزان (حيزان)(٣٢) من شاه بلوط وبندق وفستق كانت موجودة في العهد الدوستكي أم لا؟ هذا علماً بأن الأنواع الثلاثة الأولى غريبة عن كُردستان، إذ لم نسمع بوجودها في منطقة أخرى منها ماعدا الشاه بلوط (كستنائي) الموجود في نصيبين آنذاك (علماً أنه غير موجود الآن حيث لم تبق أشجارها) ومن المحتمل أنها نقلت الى كُردستان من بعض البلدان الشرقية أو من أذربيجان أو من آسيا الصغرى حيث يتوفر فيها. وقد صرح كل من ياقوت الحموي والقزويني وعبداللطيف البغدادي بوجود الشاه بلوط والبندق في هيزان(٣٣)، بينما أشار أبو

(٣٠) راجع جورج كونتينو، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ص١٦٨.

(٣١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٠.

(٣٢) تقع مدينة هيزان في المنطقة الجبلية الواقعة في جنوب شرق بدليس وجنوب غرب بحيرة وان، وتبعد عن سواحلها بحوالي (٤٥) كلم. كانت مدينة صغيرة محفوفة بالبساتين الكثيرة. وفي شرفنامه، ص٢٧٤ يقول المؤلف أن بانيها في عهد المغول يحتمل أن يكون نصيرالدين الطوسي. وقال أيضاً أن كل الفواكه الموجودة في أذربيجان وإيران موجودة فيها، ولكن ما قاله شرفخان خطأ، حيث أنها كانت موجودة قبل ذلك العهد بكثير. فمثلاً ذكرها المقدسي وياقوت الحموي وغيرهما. وقد أورد شرفخان بحثاً لأمرائها وأول من ذكر منهم هو الأمير سليمان، الذي كان حياً سنة ٨٢٤ كما يُفهم من كلامه، ومنهم أيضاً الأمير داود بن الأمير ملك، الذي شيّد في هيزان المدرسة الداودية التي تخرج منها علماء أفاضل. وتولى الإمارة بعده إبنه السلطان أحمد، ثم أبناء الأخير محمد وملك خليل والمير محمود ثم الأمير حسن بن ملك خليل. وذكر أن أمراء هيزان ومكس وأسباير من عائلة واحدة في الأصل.

جدير بالذكر أنه نشأ في منطقة هيزان الكثير من العلماء من ذوي العلم والفضل. وقد نبغ من هؤلاء ملا خليل السعردي صاحب المؤلفات الكثيرة. لقد عظم شأن هذه المدينة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حينما أصبحت إحدى أكبر مراكز العلم والطريقة النقشبندية في كُردستان في عهد الشيخ صبغة الله المعروف عند الكُرد بإسم (غوث هيزان)، الذي أخذ الطريقة النقشبندية من (السيد طه) الكبير الشمزيني خليفة مولانا خالد السليماني. وقد إحتفظت هيزان بشأنها في عهد أبنائه الشيخ شهاب الدين ومحمد شيرين وإبن أخيه السيد علي، الذين أعدموا في مدينة بدليس من قبل الأتراك سنة ١٩١٣ لقيادتهم ثورة كوردية ضد الحكم العثماني التركي إنتهت بإخمادها من قبل القوات التركية وإعدامهم. أما أستاذهم (خليفه سليم) فقد لجأ الى القنصلية الروسية في بدليس. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى في السنة التالية أخرجه منها الأتراك وأعدموه. وبهذا فقدت هيزان مركزها العلمي ومدرستها، التي كانت تضم الكثير من الطلبة والأساتذة الذين كانت أسرة هيزان تنفق عليهم من مالها الخاص. ومن أشهر أساتذة المدرسة المذكورة (ملا خالد أولەكى) وكان من أمثال الملا خليل السعردي ومحمد بن آدم. هذا وقد تفرعت أسرة هيزان من الأسرة الأرواسية المشهورة بالعلم، والتي نبغ منها الشيخ فهيم الأرواسي وإبنه الشيخ محمد أمين الذي ألف كتباً عديدة باللغة الكُردية على ما يذكر. وتجدر الإشارة هنا الى شاعر معاصر وهو ملا أحمد الهيزاني وله ديوان نشر باللغة الكُردية وشعره جيد وهو من أسرة مشايخ هيزان. وفي ١٩٧٧/٨/١٠ زرت هيزان وكانت توجد فيها حينها (١٨) أسرة، وقمت بتصوير آثارها ومنها السور والقلعة وقبر الفتاة (سينەم) التي شاعت بصددها بين الكُرد أغنية مشهورة. وقد كتبت بخصوص هيزان معلومات مفصلة في كتابي المخطوط (گەشتەكێ ئەركيۆلۆجى دكوردستانا باكوردا، ١٩٧٧).

(٣٣) الحموي- معجم البلدان ج٢ ص٣٣١. القزويني- آثار البلاد ص٣٦٠. البغدادي- مراصد الإطلاع ج١ ص٤٤١.

الفداء والقلقشندي وسباهي زاده الى وجود البندق فقط(٣٤). وقد قال الثلاثة الآخرون بعدم وجوده في أي مكان آخر من بلاد الجزيرة والعراق والشام. كما لم يشر إبن حوقل الى وجود الشاه بلوط في نصيبين بينما هو من سكانها أصلاً، كما لم يشر اليه غيره من جغرافيي القرن العاشر الميلادي ممن كتبوا عن نصيبين، فمن المحتمل أنه زرع فيها في الفترة الواقعة بين زمن إبن حوقل وياقوت التي تمتد حوالى قرنين، بضمنها العهد الدوستكي، هذا ولم يهتم الكُرد بزراعة البندق والفستق وشاه بلوط وعنب كشميش من الفواكه النادرة الموجودة في هيزان، فلانجدها منتشرة في كُردستان الوسطى.

أما الزيتون، وهو من نباتات البحر الأبيض المتوسط فقد كان موجوداً في كُردستان في العهد الآشوري (٩١١-٦١٢ ق.م) ولكن على نطاق ضيق. أما في العهد الدوستكي فقد كانت موجودة ولكن بقدر قليل أيضاً، رغم وجودها في نصيبين وماردين. هذا بالإضافة الى أشجار الزيتون والبندق والفستق التي زرعت من قبل (مار حنانيا) مطران ماردين في دير الزعفران في أواخر القرن السابع الميلادي(٣٥). وتوجد أشجار الزيتون في شمال غرب مدينة الجزيرة في بوتان في (فنك) ووادي بينات (باعيناثا) وفي قرية دهوك في منطقة (شرنخ) ماوراء جبل الجودي. إلا أن الكُرد بصورة عامة لم يهتموا بزراعة الزيتون.

ومن الفواكه التي كانت الموجودة في كُردستان في العهد الدوستكي (التفاح) وتوجد الآن عدة أنواع محلية منه في كُردستان وهي قليلة المقاومة، ولعل النوع الخلاطي كان موجوداً في عهدها. ويشبه هذا النوع التفاح اللبناني الأحمر ويمتاز عن الأنواع الأخرى بمقاومته للبقاء، حيث يبقى الى الشتاء، ويوجد ايضاً في غير مدينة خلاط من الأماكن الواقعة على سواحل بحيرة (وان) مثل وان وأرتميت (أدرميت)، ويسميه الكُرد أينما وجد هذا النوع بالتفاح الخلاطي نسبة الى مدينة خلاط

(٣٤) أبو الفداء- تقويم البلدان ص٣٧٣. القلقشندي- صبح الأعشى ج٧ ص٢٧٤. سباهي زاده- أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك ص١١٧- مخطوط. والشاه بلوط يشبه البلوط في قشرته ولبه ولكنه يختلف عنه في طعمه الحلو وحجمه الصغير. ويوجد الشاه بلوط في قبرص والبندقية بإيطاليا.

(٣٥) الشابشتي، الديارات، ص٢٤١، تعليق للأستاذ گورگيس عواد. وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب، ج١، ص٢٥٨، بأن الزيتون تم غرسه في العراق أول مرة في عهد الملك الساساني شابور الأول وذلك من قبل أسيره الإمبراطور الروماني ڤاليريان في سنة (٢٦٠م) أو السنوات التي تلتها، وهذا غير صحيح. وتجدر الإشارة الى أنه كانت هناك (٩٠٠٠) شجرة زيتون في عصرنا هذا في الخمسينات في قرية (زفزيک) الواقعة شرقي سعرد وشمال بوتان، كما في (ج١، ص٨٦ من DOGU ANADOLU) تأليف حسين سراج أوغلو، ولعلها غُرست في المنطقة قديماً كما في بوتان. إنتشرت زراعة الزيتون حديثاً في كُردستان تركيا. ففي سنة ١٩٧٠ بلغ الإنتاج من الزيتون (٧٠) ألف طن في ولاية عينتاب المتاخمة لمحافظة حلب السورية. وتوجد في (بينات) غابة طبيعية لأشجار الصنوبر، كما توجد غابتان في زاويته وأتروش من كُردستان العراق، ولم نسمع بوجود تلك الأشجار في مكان آخر من البلاد الكُردية عدا مكان واحد في لورستان. والنوع الموجود في (بينات) يستخدم السكان أخشابه اليابسه في الإضاءة بدلاً من الشمع لإحتوائها على الدهن. وقد ذكر العالم الكُردستاني المشهور أبو حنيفة الدينوري (القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي) أن هذا النوع من الصنوبر يسمى (آزردكرد)، وهو لفظ آري. وذكر بأن الخشبة تستعمل كالمصباح للإضاءة وتسمى (داذين) وقال إنه لفظ رومي (يوناني). راجع القطعة المطبوعة من الجزء الخامس لكتاب النبات، ص٢٠٣ لأبي حنيفة طبع ليدن.

الكُردية، وقد نُقل هذا النوع من كُردستان الى بلاد الشام وزرع هناك. وقد ذكر البدري[٣٦] التفاح الخلاطي (الأخلاطي) من بين أنواع التفاح الموجودة في دمشق. وأضاف حبيب زيات بأنه مازال موجوداً بنفس الإسم لحد الآن[٣٧].

الخضراوات

كانت خضراوات البصل والثوم والكراث والقرع والبطيخ والجزر تزرع في العهد الدوستكي لكونها خضراوات قديمة موجودة في كُردستان منذ العهد الآشوري. أما القثاء فكان موجوداً هو الآخر. وأما (الترعوزي) فقد ذكر ياقوت الحموي المتوفى سنة (١٢٢٩م) بصدد قرية (ترع عوز) الواقعة في منطقة حران (من ولاية أورفا) أنه: يزرع بها نوع من القثاء عذياً (ديماً) يسمى (ترعوزي) نسبة الى هذه القرية. ويلاحظ من كلامه أن ترعوزي الذي كان يزرع ديماً لم يُشاهده في مكان آخر رغم تجواله في كثير من بلدان الشرق الأوسط، وإن زراعته لم تكن منتشرة فيها. ولاندري مدى إنتشاره في الأماكن الأخرى من كُردستان آنذاك، لكني أشك أن الترعوزي لم يكن منتشراً في الشرق الأوسط إذذاك.

أما البطيخ الأخضر (الرقي - وبالكُردية شوتي، زەبەش) فلا ندري هل إنه كان موجوداً في كُردستان في العهد الدوستكي أم لا؟ هذا مع العلم بأن بطيخ دياربكر من هذا النوع حاز إعجاب زوار المدينة لضخامته، حيث كان وزن البطيخة الواحدة منها يبلغ أحياناً سبعين كيلوغراماً، وهو ما لم نسمع بوجوده في البلدان الأخرى[٣٨]. أما بطيخ دياربكر الأصفر فكان وزن البطيخة منه يبلغ عشرات الكيلوغرامات أحياناً، ولكن بضخامة أقل من النوع الأول[٣٩]. لقد أشار الفارقي في (ص٢٢٥) الى ما كان يزرعه الناس حول مدينة فارقين من "جميع الفواكه والخضر والبقول".

الثروة الحيوانية

قام سكان كُردستان بتربية أنواع الماشية من أغنام وأبقار وماعز قبل عشرة آلاف سنة. وقد بدأوا بالماعز أولاً قبل الكلب ومن ثم الأغنام فالأبقار، وذلك إستناداً الى إكتشاف عظام هذه الحيوانات الداجنة في (زاوي چەمی) والصحيح (زەڤيا چەمێ) في قرية شانەدر الواقعة على الزاب الكبير قرب كهف شانەدر في محافظة أربيل، وكذلك ما عُثر عليه في موقع (چرمو) الواقع في جنوب سلسلة

(٣٦) البدري: هو أبو البقاء أبو بكر بن عبدالله بن محمد بن أحمد له مؤلفات عديدة كما في (الأعلام، الزركلي، ج٢، ص٤١). ورد إسمه في كشف الظنون، ج٢، ١٩٤١ عبدالله بن محمد وهو خطأ، حيث صححه الزركلي إستناداً الى وجود إسمه بخطه على كتابه نزهة الأنام. وتوفي سنة (٨٩٤ هـ = ١٤٨٩م).

(٣٧) حبيب زيات، الخزانة الشرقية، ج٢، ص١٧، نقلاً عن نزهة الأنام في محاسن الشام للبدري.

(٣٨) راجع: HAYAT- TURKIYE ANSIKLUPEDISI

(٣٩) قال أبو الثناء الآلوسي مفتي بغداد في القرن التاسع عشر في كتابه (نشوة المدام، ص٦١) أني شاهدت في حضرة الوزير بدياربكر بطيخة خضراء تكاد تظل القاعة، فإستغربت ذلك جداً وأمرت قباني أن يزنها فوزنها فبلغ وزنها ثمان وعشرين حقة. وقال لي الوزير أنه وزن واحدة مرة فبلغ وزنها أربعين حقة ووزن بطيخة صفراء فكانت ثلاثين حقة.

بازيان (جبل لارب) من محافظة السليمانية(١).

وقد عبّر الطبيب إبن بطلان عن الثروة الحيوانية والتجارة في هذا الباب في الدولة الدوستكية بـ(سوق العجل) والإشتغال فيه، كما مر نص كلامه في أوائل موضوع (الحالة الإقتصادية).

إشتهرت كُردستان بثروتها الحيوانية نظراً لكثرة المراعي الصيفية والشتوية فيها، فقد ذكر إبن الأثير في حوادث سنة (٦٢٤هـ) أن: منطقة (الزوزان) هي سوق لبيع الأغنام والماشية، فالتركمان والكُرد والكيلكان هم رعاة ماشية يتنقلون في فصلي الربيع والصيف من الأماكن التي أشتوا فيها الى الزوزان، فيبيعون الغنم رخيصاً(٢).

وقد وصف الثعالبي الصوف الأرمني بأنه من أجود الأصواف بعد صوف مصر، وهو أحمر على ما ذكره آدم متز في (الحضارة الإسلامية، ص٣٥٤)، وكانت تصنع منه الفرش التي كانت من أجود أنواع الفرش. يشار الى أن معظم الأغنام حالياً في المناطق الكُردية في ولايات بدليس وموش ووان وصولاً الى نهر آراس صوفها أحمر كثيف وقصير، وهو ما يسمى بالصوف الأرمني.

وكانت البغال القوية والحمير والأفراس كثيرة في كُردستان، إذ كانت تستخدم لأغراض النقل. وكانت أعداد البغال والأفراس أكبر لدى القبائل الرحل بسبب إستخدامهم لها في نقل متاعهم من مكان لآخر. وقد ذكر إبن حوقل ذلك بقوله: وبهذه البلاد (أي أرمينية الى فارقين) وفي أضعافها من التجارات والمجالب وأنواع المطالب من الدواب والأغنام. وقال أيضاً: ويجلب من الزوزان ونواحي أرمينية والران من البغال والجياد الموصوفة بالصحة والجَلد والفراهة والصبر - والى العراق والشام وخراسان وغير ذلك ما يستغنى بشهرته عن وصفه. وقال أيضاً: الزوزان ناحية وقلاع لها ضياع الغالب عليها الجبال ويكون بها الشهاري الحسنة الموصوفة بالجمال والفراهة ما يقارب شهاري طخارستان وربما زاد عليها وعلى نتاج الجوزجان(٣).

كما قال في صفحة (٢٠٢-٢٠٣) في بحثه عن مدينة الجزيرة وتجاراتها: وليست الجزيرة كأرزن وميافارقين من قلة الماشية والكراع. أي أن منطقة الجزيرة (منطقة بهتان - بوّتان) تفوق منطقة أرزن وفارقين في كثرة الغنم والماعز والبقر، والكراع أي الخيل والبغال والحمير. وكانت فرس الجزيرة من أجود الأفراس(٤) وكان في فارقين خارج السور من جهة القبلة سوق خاص لبيع وشراء الخيل وقد سمي (سوق الخيل).

(١) راجع طه باقر وفؤاد سفر، المرشد الى مواقع الآثار والحضارة، الرحلة الخامسة، ص٢٠، والرحلة الرابعة.

(٢) زوزان: كلمة كُردية تطلق على المضارب الصيفية الباردة جداً شتاءً والمعتدلة صيفاً. وتمتد منطقة زوزان من القسم الأعلى الشمالي من بوتان من (دهشتا ميرا) و(هەرەكول) الى بحيرة وان وهكاري، وهي المنطقة المحددة بإسم (زوزان) كإسم جغرافي محدد. ولكن إسم (زوزان) يطلق أيضاً على المضارب الصيفية في موش وبنگول. كيلكان: لم أجد الإسم في غير إبن الأثير ومن المحتمل أنها عشيرة أو عشائر أرمنية رحالة. والإسم قريب من إسم (كيلكوين) وكانت مدينة في أرمينية على ما في (صورة الأرض، ص٣٠٠) لإبن حوقل، ويفهم منه أنها كانت تقع في أرمينيا العليا، أي ما وراء نهر آراس (نهر الرس)، وفي إبن الأثير، حوادث سنة (٦١٩هـ). ويفهم بأن (جبل كيلكوين) بفتح اللام يقع في منطقة (كنجه) من أذربيجان السوفياتية سابقاً (بلاد آران) ويحتمل أن يكون هذا بعيداً عن موضوعنا.

(٣) إبن حوقل، ص٢٩٦ و٢٩٧: الشهاري: الأفراس

(٤) راجع الأصطخري، مسالك الممالك، ص١٢٥.

أما الإبل فكانت توجد في مناطق دياربكر والرها، وقد جاء ذكرها أكثر من مرة. ففي تاريخ الفارقي (ص٦٨) أن الأمير أبا علي حسن بن مروان عندما تظاهر سنة (٣٨٤ هـ) بالخروج الى خارج البلد للمشاركة مع سكان العاصمة في الإحتفال بعيد الأضحى: "أخرج من النجائب والزينة ما لم يُر مثله" والنجائب هي الإبل وكانت تستخدم في مواكب الأمراء كما توجد حالياً في دياربكر وأورفا وكما كانت موجودة في سعرد في النصف الأول من القرن العشرين.

النحل والعسل

كان النحل البري يتواجد بكثرة في المناطق الجبلية الكُردية ذات الغابات الكثيفة، وكان يبني خلاياه في جذوع الأشجار وثقوب الصخور في شتى العصور. ولكن وجود ذلك النحل قلّ في الوقت الحاضر بسبب قطع الأشجار بكثرة من قبل السكان وبسب جهل وطمع الذين يجنون العسل، إذ لايبقون منه شيئاً في الخلايا ليقتات عليه النحل شتاءً، مما كان يؤدي الى موته جوعاً.

أما النحل الداجن فكان منتشراً بكثرة هو الآخر، وكان الكُرد يحصلون منه على كميات كبيرة من العسل يصدرونه الى خارج بلادهم. وفي العهد الدوستكي كان كثيراً ورخيصاً جداً فقد ذكر ناصر خسرو (في سفرنامه، ص٤٣) الذي سلك بلاد الدولة الدوستكية في طريقه الى مصر: أن الشخص الواحد في (بدليس) يجني في السنة الواحدة من العسل ثلاثمائة وأحياناً أربعمائة جرة عسل. وكان مائة (مَنٍّ) من العسل تباع بدينار واحد. وقد أشار المقدسي في (أحسن التقاسيم، ص١٤٥) الى وجود العسل في حران، كما أشار إبن حوقل الى العسل في مدينة الجزيرة كمادة تجارية تحملها المراكب (في دجلة) ويُشحن الى العراق مع المواد التجارية الأخرى وذلك في (صورة الأرض، ص٢٠٢).

المعادن

كُردستان بلد غني بمختلف أنواع المعادن، وقد ثبت لدى علماء الآثار معرفة سكانها القدامى بالنحاس وإستخدامه عن طريق الطَرق منذ تسعة آلاف سنة (إذ لم يثبت لحد الآن إكتشاف أقدم من ذلك التاريخ في أماكن أخرى)، وذلك في قرية (جايونو)، الواقعة على مقربة من قرية (هلار) الحالية الواقعة على مسافة (٨) كلم جنوب غرب مدينة (معدن- أرغن) وهي مركز قضاء تابع لولاية دياربكر يقع على مسافة (٥٨) كلم شمال مدينة دياربكر، القريبة من منبع نهر دجلة. كما عرف سكان كُردستان النسيج أيضاً في جايونو[١]. وكان يتم تصدير النحاس من منطقتي دياربكر والقفقاس الى أوروبا قبل وصول الآريين الى أوروبا، أي قبل (١٦٠٠) سنة قبل الميلاد[٢].

تعود بدايات إستغلال منجم النحاس في مدينة أرغن (معدن) الى العصر الحجري الحديث، وإمتد إستغلاله مروراً بالعصور التاريخية اللاحقة حتى اليوم. ويعتبر المنجم المذكور أكبر منجم للنحاس في

(١) راجع، سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ص٣٠.
(٢) جورج رو، العراق القديم، ص٣٠٨.

تركيا اليوم. وكان يجري تصدير النحاس من كُردستان كذلك الى العراق من هذه المنطقة في الألف الثالث قبل الميلاد(٣).

يذكر بن الآشوريين إستفادوا هم أيضاً في عصرهم من منجم (معدن-أرغن) المذكور. ومن المرجح أن الدولة الدوستكية قد إستفادت هي الأخرى من هذا المنجم للحصول على النحاس، الى جانب مناجم كثيرة أخرى كانت موجودة في القسم الأعلى من بوتان وحتى منطقة (شاخا هەكاريا) الواقعة في جنوب بحيرة وان، حيث توجد الآن آثار المئات من الـ(كُوَر) التي إستخدمت لصهر الحديد والنحاس في هذه المنطقة والتي لم تكتب عنها المعلومات(٤).

وعندي أنها هي المقصودة بالإشارات التاريخية الواردة حول وجود النحاس في أرمينيا، وكذلك

(٣) يقول الدكتور فوزي رشيد في، نرام سين ملك جهات العالم الأربع، ٣٨، بأن القوافل التجارية في عهد نرام سين (٢٢٦٠-٢٢٢٣ ق.م) كانت تنقل النحاس من آسيا الصغرى. وكانت قرية (باستكى) الواقعة بين دهوك وزاخو، التي عُثر فيها على تمثال لنرام سين، محطة للقوافل التجارية. وقد ذكر في ص٧٣ بأن التجار كانوا يحصلون على القصدير من مناطق تقع على نهر دجلة من بلاد آشور، هذا علماً أن المؤرخين والآثاريين المتأخرين يدخلون كُردستان تركيا ضمن اسيا الصغرى وأحياناً الأناضول، بحسب الحدود التركية الحديثة. وذكر المؤلف أيضاً أن التجار العراقيين كانوا يصدرون القصدير الى الأناضول، لإفتقار المنطقة الى هذه المادة، الى جانب المنسوجات الصوفية. وفي العهد الآشوري كانت نفس التجارة موجودة.

(٤) ذكر لي أخي الملا أحمد يوسف، وهو قوي الذاكرة، وسكن مدة في قرية (خومار) الواقعة في جنوب مدينة (شاخا هەكاريا) مركز إحدى أقضية (وان) في آخر حدود الولاية من الناحية الجنوبية، وتجول في تلك المنطقة المتصلة بأعالي بوتان وله معرفة نوعاً ما بالمعادن- ذكر لي عن مشاهدته (كور) الحديد (كورێن هەسن) على ما يسمى هناك - في خومار ووادي (سكويّت) بين خومار وقرية (فرجينس) وفيها قلعة عليها كتابة مسمارية وتقع في حدود بوتان وهكاري، وكذلك (هەروخ) وسفوح جبل (كور قەنديل) وقرية (هێشەت - هێشەتا بەرێ سپى- براسپيبا كانت عشيرة قديمة) وجبل (كاتو) المنيع. وتوجد في الجبل غابات كثيفة من الأشجار كانت تقطع لإستخدامها في إيقاد النار في الكور الموجودة بكثرة هناك لصهر خامات الحديد والنحاس. وأضاف بأن إنتاج الحديد والنحاس كان يتم في تلك المنطقة. وتوجد الآن الآلاف من قطع الحديد والنحاس المبعثرة فيها إضافة الى قطع الرصاص. وأضاف الملا أحمد، الذي تجول في المنطقة مع أحد خبراء المعادن (وإستفاد من معلوماته)، بأن ماوراء حزام الغابات هذا بإتجاه الشمال من مناطق وان وما سمي قديماً بأرمينية، مناطق خالية من الأشجار الطبيعية، ولذلك لم تكن هناك كور لصهر الحديد فيها لإحتياجها الى مقادير كبيرة من الخشب لإيقاد النيران في الكور. وعلى هذا، فإن إنتاج الحديد والنحاس المنسوب قديماً الى أرمينية، كان يتركز في هذه المنطقة المشجرة من بوتان والى حدود مدينة (شاخ) من منطقة هكاري. وزاد الملا أحمد بأن هذا العدد الهائل من الكور قديم، وإن السكان قبل حوالي سبعين سنة كانوا يستخرجون عروق الرصاص من المنطقة في حدود قرية (بيرخو) شمال شرق مدينة (شاخێ) في وادي (كاكان)، حيث كانوا يستخرجون تلك العروق الضخمة من الرصاص ويستخدمونها في صنع الذخائر لبنادقهم. ويحتمل أن الرصاص كان يستخرج قديماً أيضاً من هذه المنطقة.
وقد ذكر أندريه بارو في كتابه (بلاد آشور، ص٢٥١) أن هناك إشارات متواصلة في الألف الثالث قبل الميلاد وفي عهد سرجون الأكدي بالذات (٢٣٤٠-٢٢٨٤ ق.م) في النصوص المسمارية الى "جبال الفضة"، التي تقع في هذه المنطقة على وجه الدقة في أرمينيا وآسيا الصغرى. وذكر ايضاً النحاس والرصاص في أرمينيا وآسيا الصغرى، اللذين كان العراقيون يستوردونهما (ص٢٤٨، ٢٥٠). وقد وجدت في بعض المصادر إشارة الى منجم للفضة في منطقة (شاخ). وفي سنة (١٩٥٥-١٩٥٦) سكنت في منطقة شاخ وتحديداً في قرية (گوران دشت) التي يقال أن الذهب موجود فيها، حيث قامت الحكومة التركية بفحص أطراف القرية للعثور عليه. وكان السكان قد أخفوا عنها الأمر رغم شيوعه بينهم. والخلاصة أن مناجم النحاس والحديد والرصاص، والتي نسبت فيما بعد الى أرمينية إنما هي المناجم الواقعة في هذه المنطقة الكُردية التي كانت تحت سيطرة الدولة الدوستكية وكان الأرمن والكُرد يعيشون مختلطين هناك، لكن الأرمن هم الذين كانوا يستخدمون المناجم.

الحديد والرصاص والفضة. علماً أنه يوجد منجم للحديد أوالنحاس بالقرب من مدينة (مكس) الواقعة في الشمال الغربي من تلك المنطقة. وقد ذكر المؤرخ الملا أنور المائي في (الأكراد في بهدينان، ص٣٩) بأن السكان المحليين في بهدينان كانوا يستخرجون الحديد والنحاس حتى عام ١٨٧٩م، ثم تركوا الأمر حينما فرضت عليهم الدولة العثمانية ضرائب باهضة. ولا تزال آثار إستخراج الحديد موجودة بكثير في جبال المنطقة أي جبال اعمادية وزاخو. وهناك منجم آخر في قرية قهشان (كشان) في شمال شرق زاخو. والجدير بالذكر أن تلك الأماكن كانت كلها تحت السيطرة الدوستكية. هذا وقد تم إكتشاف منجم آخر للنحاس في شمال دياربكر بالقرب من (قلعة ذي القرنين) في سنة (٥١٦هـ = ١١٢٢م)، على ما ذكر إبن الأثير في حوادث تلك السنة وكذلك إبن شاكر الكتبي في (عيون التواريخ، ج١٢، ١٣١)(٥).

وذكر الهمداني في (كتاب البلدان، ص٢٩٧) أن معادن الزئبق والقلند (أي الزاج المائل للخضرة)، والقُلقُطار (أي الزاج الأصفر الذي فيه حمرة)، والأسرُبّ (أي الرصاص الرديء) موجودة في أرمينية. وقد ألمحنا سابقاً الى أن العديد من الجغرافيين القدماء والمؤرخين أطلقوا إسم (أرمينية) على المناطق الواقعة شرق دجلة، كمنطقة بوتان وغيرها من المناطق الكُردية غير الأرمنية، ولهذا فقد سجلت مصنوعات ومنتوجات تلك المناطق الكُردية بإسم أرمينيا، لكون الكُرد والأرمن لهم تاريخ مشترك. ولاشك بأن إستخراج وإستغلال تلك المعادن لم يتوقف خلال العهد الدوستكي، بل شهد توسعاً بسبب حالة الأمن والإستقرار وإزدياد السكان وتوسع التجارة آنذاك.

أما أحمد بن التيفاشي التونسي فقد شاهد في جبال منطقتي دهوك وزاخو وجبل الجودي الواقعة على الطريق بين الموصل ومدينة الجزيرة (تخوم بلاد أرمينية)، أي حدود أرمينية وذلك على ما مرّ بها، أحجار (بازَهر) من الأحجار الكريمة، وذلك في النصف الأول من القرن الثالث عشر(٦). وفي موضوع (البلّور) ذكر التيفاشي وجوده في أرمينية وهو للصفرة الزجاجية كأنه مطبوخ بالنار وذلك في

(٥) يأتي ذكر حصن ذي القرنين في كثير من المصادر التاريخية والجغرافية القديمة، ويأتي ذكره أحياناً بإسم رباط ذي القرنين. ورغم أني لاأستطيع أن أشخصها، إلا أنها كانت تقع في شمال لجن بمسافة حوالي (٢٠) كلم، وقد سلكها إبن حوقل في طريقه من فارقين الى ملاطية. وقال إن المسافة من فارقين الى هتاخ Atak (القريبة من لجى) مرحلة ومن هتاخ الى حصن ذي القرنين مرحلة خفيفة. أما لجى Liçe فإنها تقع في شمال شرق مدينة دياربكر بحوالي (٩٠) كلم وفي شرق حاني بمسافة حوالي (٢٥) كلم أو أكثر.

(٦) التيفاشي، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ص١١٧-١١٨، تحقيق ونشر الدكتور محمد يوسف حسن والدكتور محمد بسيوني خفاجي. توفي التيفاشي سنة (٦٥١هـ = ١٢٥٣م). زار المذكور كُردستان باحثاً عن المعادن والأحجار الكريمة، وذكر أن حجر (بازَهر) أبيض فيه نقط من ألوان صفر وهو رخو المحك سريع الإنحكاك، تصنع منه قبضات السكاكين كما يستخدم للأغراض الطبية، حيث يحك بالماء ويُطلى به موضع الضربة أو السقطة، فيبرأ المصاب. وقد تناول أنستاس الكرملي (باد زهر) أيضاً في معجمه (المساعد، ص١٠٩) وإعتمد على التيفاشي بالدرجة الأولى ثم على إبن البيطار، وقال إن إسمه العلمي هو (بيزوليثس). في القاموس الفارسي (برهان جامع) لمؤلفه محمد كريم: أن (باد زهر) يذكر من قبل العوام (پازهر) وبالعربية (حجر التيس). ويسمى الكُرد في زاخو هذا الحجر بإسم (بەرێ بازی) أي حجر (بازی).

كتابه (أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ص٢٠١). وفي القرن العاشر الميلادي الذي ظهرت فيه الدولة الدوستكية، كانت معادن النحاس والمغنيسيا معروفة في باجنسيا (باتنوس) الواقعة شمال شرق بحيرة وان(٧).

كما عرف فيها أيضاً عدد من النباتات الطبية، فقد ذكر ياقوت الحموي نقلاً عن مسعر بن مهلهل، الذي زار هذه المنطقة في القرن المذكور: "أن في باجنسيا معدن الملح الأندراني(٨) ومعدن مغنيسيا ومعدن نحاس وبها الشيح الذي يستخرج الدود من الجوف، إلا أن التركي خير منه وبها أبسنتين وأستوخودوس"(٩).

ويحتمل أن منجم الحديد أو النحاس الواقع في قرية (هلال) في وادي گويان في شرقي الجودي، والذي كان يستغله سكانه المسيحيون حتى وقت قريب، أن يكون مكتشفاً منذ زمن قديم. وهذه القرية قريبة من گورگيل (جردقيل) مركز الإمارة البختية في العهد الدوستكي. أما الرصاص، فكان يستخرج من نصيبين ويصدر الى الخارج على ما ذكره الجاحظ في القرن التاسع الميلادي(١٠).

وفي جبل ماردين كان يوجد حجر زجاج جيد كان يُصدر الى سائر بلاد الجزيرة والعراق والبلاد البيزنطية، وكان مفضلاً على سواه(١١).

(٧) راجع بصدد باتنوس- باجنسيا موضوع الحياة البشرية: العرب.

(٨) في تذكرة أولي الألباب، ج١، ص٣٢٣ لداود الأنطاكي أن الملح الأندراني هو من أجود أنواع الملح، وهو على شكل صفائح بلورية. وفي محيط المحيط للبستاني، ج٢، ص٢٠٥٦، أنه الملح شديد البياض المستعمل في الطعام.

(٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، مادة: باجنسيا. الشيح نوعان: الشيح الأرمني الذي ينبت في أرمينية ومن ضمنها باجنسيا من كُردستان، وهو أصفر زهره يشبه السذاب في ورقه، والنوع الثاني هو الشيح التركي وهو أحمر الزهرة عريض الورق. ويستعمل النوعان لأغراض طبية في مجال معالجة أوجاع الظهر والورك وضيق النفس وداء الثعلب والرمد وعسر البول... راجع الأنطاكي، تذكرة أولي الألباب، ج١، ص٢٢٠ وهو كتا مؤلف في الطب.

أبسنتين: يعرف أيضاً بأفسنتين ودمسيسة وشيح رومي وحترق، وهو عشبة معمرة من فصيلة المركبات الأنبوبية الزهر تنبت برياً في الأصقاع المعتدلة. وأفسنتين كلمة يونانية. والنبات معروف بإستخدامه للأغراض الطبية في معالجة آلام الأذن وفي تنقية الرئة والإختناق وسوء الهضم وطرد الديدان وعسر البول وأمراض أخرى. راجع داود الأنطاكي، تذكرة أولى الألباب، ج١، ص٤٩، ٥٢. وإدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج١، ص٥.

ويجدر بالذكر أن نبات اسفنتين كما يسميه الكُرد معروف الآن في كُردستان، حيث يجمعه الناس في بعض المناطق ويغلونه ويشربون ماءه لمعالجة أوجاع البطن، ولازال الكُرد يستعملون نباتات كثيرة في طبهم الشعبي. وذكر الأنطاكي نباتاً طبياً بإسم الكُرد وهو (بخور الأكراد)، وهو برياطوده له أزهار صفراء فوق ساق دقيقة، راجع المصدر المذكور، ص٧٠.

أسطوخودوس: كلمة يونانية، ويسمى أيضاً الكمون الهندي وبالعربي الضرم، وهو نوع من الخزامى يبلغ طوله من ٢٠-٤٠ سم، أوراقه خيطية رمداء اللون أزهارها سنابل. وهو نبات طبي أستخدم قديماً في علاج أمراض كثيرة وهو مفيد للقلب وتنقية الكلية والطحال والمعدة والكبد. ويستخدم أيضاً في حالات الربو. ويستعمل بخور الأكراد كذلك في حالات الصداع والصمم. راجع الأنطاكي المصدر السابق، ج١، ص٤٢-٤٣. وإدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج١، ص٣٥٥ وفي كتاب النبات للعالم الكُردستاني أبي حنيفة الدينوري، ج٣، ص٢١٠. أن الضرم أي أسطوخودوس طيب الرائحة يتشمم به وكذلك دخانه طيب ويدلك به أجواف الخلايا فتألفه النحل.

(١٠) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص٢٦.

(١١) إبن حوقل، صورة الأرض، ص١٩٤.

وقد ذكر ذلك كل من إبن حوقل والأصطخري في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). أما الزرنيخ فكان يستخرج في نفس القرن من أحد الجبال القريبة في جنوب بحيرة وان، ويجلب منه الى البلدان الخارجية وهو أصل الزرنيخ ومنه الأحمر والأصفر(١٢).

ومن الجدير أن أوليا چلبي تحدث ولو في وقت متأخر عن وجود الزرنيخ في السواحل الشمالية لبحيرة وان(١٣).

لقد كانت للزرنيخ المستخرج من هذه المناطق شهرة عالمية في القرون الوسطى بضمنها العصر الدوستكي نظراً لجودته وأهميته في المجال الطبي(١٤).

وكان الزنجبيل يصدر في القرون الوسطى من منطقة هكاري الواقعة في جنوب بحيرة وان، بنوعيه الأصفر والأحمر الى العديد من البلدان الخارجية(١٥). كما إكتشف في هكاري أيضاً معدن اللازورد(١٦). ومن بين المعادن التي ذكرت أيضاً في القرن العاشر الميلادي البورق، الذي كان يجلب

(١٢) الإصطخري، مسالك الممالك، ص٧٣. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٧٩.

(١٣) ذكر أنه توجد في خلاط وقد زارها في القرن السابع عشر وفي سنة (١٠٦٥م) بالذات، معادن مختلفة منها الزرنيخ الأحمر ويستعمل في الغسل (بطريقة يعرفها السكان) فيجعل البشرة لينة كالقطن، ويستعمل أيضاً دواءً للجذام والبرص، ومرض داء الثعلب وذلك بتناول المريض مقداراً قليلاً منه كالدانق. وذكر أيضاً أنه يوجد الزرنيخ الأصفر في الجبل الواقع شمال خلاط ويصدر الى بلاد العرب والعجم وأوروپا، حيث يستعمله الكيمياويون. كما ذكر أنه يوجد مختلطاً بالماء في أحد الينابيع في الجانب الشمالي الشرقي من جبل الجواز (عادل جواز)، أي جبل (سبحان- سيپانێ خەلاتێ) المطل على بحيرة وان. هذا ومما ذكره أوليا جلبي من إستخدام الزرنيخ في كُردستان في الطب صحيح، لأنه يستعمل الآن في دول مختلفة في الطب لتقوية البنية وفي علاج بعض الأمراض الجلدية بإعتبارة مادة سامة وكذلك في مكافحة الحشرات الزراعية. علماً أن الزرنيخ عنصر شبه معدني، والأحمر منه هو كبريتوز الزرنيخ الطبيعي. راجع موسوعة علوم الطبيعة، ج١، ص٤٨٧، تأليف المهندس الزراعي إدوار غالب.

(١٤) يمكن أن نلاحظ شهرة الزرنيخ العالمية مما مر ذكره داود الأنطاكي في كتابه الطبي، تذكرة أولي الألباب، ج١، ص١٧٧ من أن (كل الزرنيخ يتكون بجبال أرمينية وجزائر البندقية). ومن هذا يتضح أن قسماً كبيراً من الزرنيخ العالمي كان يستخرج من كُردستان. ونكرر الإشارة أيضاً الى أن معظم الجغرافيين والمؤرخين القدماء وغيرهم أدخلوا مناطق كثيرة من كُردستان تحت إسم أرمينيا حتى فارقين وحدود نهر دجلة. راجع على سبيل المثال إبن حوقل، ص٢٩٥. فالمقصود إذن بجبال أرمينيا التي كانت تضم معادن الزرنيخ إنما هي الجبال الواقعة في السواحل الجنوبية أو الشمالية الغربية لبحيرة وان، والتي كانت ضمن الدولة الدوستكية من البلاد الكُردية، ولم نسمع بوجوده في منطقة أخرى من أرمينيا. وكان للزرنيخ في القرون الوسطى أهمية كبيرة كمادة طبية وصناعية. راجع التفاصيل في المصدر المذكور. أرادت الدولة العثمانية على إستخراج الزرنيخ في هكاري في أواسط القرن التاسع عشر، وفي الأرشيف العثماني وثائق بهذا الخصوص كالوثيقة (A.A MD-29: 88 و A.A. M-26:11).

(١٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٧٦ نقلاً عن مسالك الأبصار للعمري. الزنجبيل: نبات له أوراق عريضة يفرش على الأرض وأغصان دقيقة. وفي كتاب النبات لأبي حنيفه أحمد بن داود وَنَنْد الدينوري الكُردي: أن للزنجبيل عروقاً تسري في الأرض، يؤكل رطباً ويستعمل يابساً وأجوده ما يأتي من الصين وبلاد الزنج. ويستعمل الزنجبيل في العقاقير الطبية فهو مدرر ويدفع الغازات ومهيج، وهو دواء لأوجاع الرأس وأمراض أخرى. راجع تذكرة داود، ج١، ١٨٠، وكتاب النبات، ج٣، ص٢١٤، طبع بيروت ١٩٧٤. وكانت عمان مشهورة فقط من بين بلدان الشرق الأوسط بنبات الزنجبيل.

(١٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٧٦. اللازورد: معدن يتخذ للحلي، أجوده الأزرق الشفاف الضارب الى حمرة وخضرة وهي كلمة فارسية. وأشار الى وجد اللازورد في جبال أرمينيا داود الأنطاكي كذلك كما ذكر فوائده الطبية.=

من سواحل بحيرة وان ويصدر الى العراق وغيره[١٧] من البلاد المجاورة حتى بلاد الشام ومصر[١٨] ولاشك أنه كان يستغل في عهد الدولة الدوستكية وقد أشار الطبيب إبن بطلان الى إستغلال معدن آخر في العصر الدوستكي وهو (جبصين) أي كبريتات الكلس المائي الطبيعي المتبلور، وذكر أنه كان ينقل من المناطق الجبلية[١٩]. أما مجال إستخدامه فلم يذكره، ولاشك بأنه كان يستخدم في الأعمال الإنشائية وفي مجال الصناعة.

الفضة

أشار الدكتور جمال رشيد في كتابه القيم (دراسات كُردية في بلاد سوبارتو) الى وجود معدن الفضة في بلاد (تابال) المشهورة التي تقع شمال (كينكوار) مركز (أنزفيجك) في الزوزان أي على منابع نهر (بهتان)، بمعدن الفضة (في التاريخ القديم)، وذلك على ما ورد في أخبار حملة شلمنصر الآشوري عام (٨٣٨ ق.م).

يتضح مما تقدم أن معدن الفضة كان يوجد في المنطقة التي كانت تكثر فيها مناجم الحديد والنحاس. إذ أن (كنكوَر) كانت تقع في منطقة (كوه قەندیل- كور قنديل) وقلعة أروخ وهي قلعة من قلاع البختية، أي قلاع بهتان المجاورة لمنطقة (شاخا هەكارى). وقد ورد ذكر كنكور في معجم البلدان، ج٤، ص٤١٦ وكذلك في الأعلاق الخطيرة، ورقة ٦١ لإبن شداد[٢٠].

ومن المحتمل أن (كنيخوانو) كانت كينكور و(شالاخوانو) هي (شاخ - شاخا هەكارى)، حيث ورد الإسمان في الكتابات الآشورية الخاصة بأخبار الحملة الثالثة لـ(شمس أدد ٨٢٣-٨١١ ق.م). يحتمل أن منجم الفضة هذا، الذي كان معروفاً في القرن التاسع قبل الميلاد، كان معروفاً في العصور التالية

=راجع تذكرة أولي الألباب، ج١، ص٢٧٧. وقد فاتني أن أذكر أن القلقشندي أرخ لإكتشاف اللازورد في هكاري القرن الرابع عشر، وأضاف بأن الأمير الكُردي الهكاري أسد الدين بن عماد الدين بن أسد الدين أخفى معدن اللازورد، كي لا يسمع به ملوك التتر (ولعل الصواب المغول) فيستولوا عليه.

(١٧) إبن حوقل، ص٢٩٧. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣١٠. البورق: ملح معدني مركب مع الصوديوم، يكثر وجوده في التبت وإيران وكاليفورنيا. فوائده الإقتصادية كثيرة حيث يستعمل في عدة صناعات. راجع إدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج١، ص١٧٤، ذكر أيضاً في ج٢، ص٥١١ نوعاً من البورق وهو المسمى بالبورق الأرمني، وقال إنه كيمياوياً نترات البوتاسيوم يتجمع على الصخور الكلسية ويستعمل في صنع البارود. وقال آدم متز في كتابه المذكور: إن البورق لم يوجد في غير بحيرة وان وكان الخبازون يستعملونه في القرن العاشر في تلميع الخبز. وذكر نوعاً من البورق نقلاً عن إبن حوقل وهو المسمى بورق الصاغة، حيث كان الصاغة يستعملونه في لحام الذهب والفضة. وكان يستخرج من سواحل بحيرة كبوذا أي (بحيرة أورمية) وهو مايستحجر من مياه البحيرة المذكورة الشديدة الملوحة. والبورق الأول نوع من الملح أقوى من الملح العادي. ولعله الملح الأندراني الذي سبق أن ذكرناه.

(١٨) دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص٦٦٢.

(١٩) إبن بطلان، دعوة الأطباء: مقدمة. راجع معنى آخر لجبصين في أوائل موضوع الحياة الإقتصادية.

(٢٠) ورد إسم كنكور في العديد من المصادر والمراجع منها كتاب (عمادالدين زنكي، ص١١٣) للدكتور عمادالدين خليل، وهي غير مدينة (كنكور) التابعة لأستان كرمانشاه والإسم بالكُردية وبالإملاء الكردي الحديث (كەنگیور أو كنگيور).

حتى العهد الدوستكي أيضاً. وكان في كُردستان الوسطى منجم للفضة في الألف الثاني قبل الميلاد، إذ يلاحظ مما كتبه المؤرخ الدكتور جمال أيضاً أن معدن الفضة كان موجوداً في ساديبار، وإسمها (شالاتوار)، في العهد الحيثي وإسمها في اليونانية (ساريوارا) وبالأشورية (ساريواري)، وكانت تقع بين دياربكر و(كوخ توشينيا) وكانت ضمن البلاد الميتانية. ويوجد معدن للفضة عند قرية أتَنان (ئەتەنان) في طرفها الجنوبي الشرقي، والقرية تقع على ساحل بحيرة وان بحوالى كيلومتر أو أقل وفي الطرف الشرقي من مدينة (وسطان) على الطريق العام، وكان الناس يستخرجونه في ستينات القرن العشرين والقرية تعود لعشيرة (بروكي) الكُردية.

الصناعات

النسيج:

لقد تعلم سكان كُردستان صنع النسيج للملابس قديماً، فقد عثر في (جايونو) شمال دياربكر على قطعة من النسيج ملفوفة بقرن أحد الحيوانات، وذلك في الألف السابع قبل الميلاد. وبسبب التطور الحاصل في عهد الدولة الدوستكية كما سلف، شهدت الصناعات التي كان يزاولها السكان تطوراً هي الأخرى. ومن هذه الصناعات: الصناعات اليدوية التي كانت صناعة النسيج القطني إحداها وتمثلت في صناعة الأنسجة الصوفية والقطنية والستائر الفاخرة المطرزة بعضها بالذهب، وكذلك المقارم والمناديل والسبنيات، وصناعة تجفيف الأسمال وصنع الموازين والأقفال والأواني الخزفية والعطور وغيرها. وكان تصنع في مدينة آمد (دياربكر) الستائر الجيدة، وكانت بعض الستائر موشاة بخيوط من الذهب في حين كان بعضها الآخر منسوجة بخيوط الذهب، وكانت الموصل تشاركها في هذه الصناعة(١)، فكانت تصدر ثيابها الموشية الى الخارج(٢). وعرفت مدينة فارقين عاصمة الدولة الدوستكية بصناعة السَّبَنيّات والمقارم والمناديل(٣).

وكانت صناعة النسيج قديمة أصيلة في مدينة دياربكر، فقد كانت مركزاً هاماً لها وإنتقلت منها ومن مدن إقليم الجزيرة صناعة النسيج الحريري الى بلاد إيران. فقد ذكر المؤرخون وفي مقدمتهم المسعودي أن الملك الساساني شابور الأول غزا في المدة (٢٥٨- ٢٦٠ م) بلاد الجزيرة وآمد، حينما كانت في أيدي الرومان، ونقل الكثيرين من صنّاع النسيج الى إقليم خوزستان من إيران، وأسكنهم في السوس (شوشتَر - شوش). فإنتقلت صناعة النسيج من مدينة آمد (دياربكر) الى هناك، وأصبحت تعتبر أكبر مركز لصناعة نسيج الحرير(٤) في بلاد الإمبراطورية الساسانية، ثم في البلدان

(١) الدكتور عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص١٣٤. سعيد الديوهجي، الموصل.

(٢) أحمد ممدوح حمدي، معدات التجميل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ص٢٥. في العهد الأتابكي، ص٤٦. راجع أيضاً الدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل، ج١، ص٣٤٧.

(٣) إبن حوقل، صورة الأرض، ص٣٤٥. السبنية إزار أسود للنساء والمقارم الثياب الرقيقة والستائر الحمراء أيضاً.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٢٥٩. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣٥٢. الدكتور زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية في العصور الإسلامية. سعيد النفسيي، تاريخ تمدن إيران ساساني، ص٤٤. أضاف الأخير أن الساسانيين ورثوا من الآشوريين تهجير الأمم المغلوبة وإسكانهم في أماكن بعيدة عن أوطانهم.

الإسلامية كافة حتى القرن العاشر الميلادي. وقد نقل العباسيون صنّاع النسيج هؤلاء من تُستَر الى بغداد، لكي تنتشر فيها صناعة نسيج الحرير، وكانت في الجانب الغربي من بغداد محلة بإسم التُستَريين(٥). وقد حدث نقل لسكان كُردستان الوسطى الى خوزستان ولورستان أكثر من مرة(٦). وتشتهر آمد (دياربكر) بعدة صناعات تقليدية كالأقمشة الحريرية ومشغولات الجلود والنحاس(٧)، وهي صناعات قديمة ولعل صناعة الحرير لم تنقطع منها منذ عهد البيزنطيين وحتى القرن العشرين. وتجدر الإشارة الى وجود حرير بري في كُردستان يسمى (قز) والثياب المصنوعة من هذا القز تسمى ثياب القز(٨)، وثياب الصوف وثياب الكتان(٩).

أما مدينة نصيبين فكانت أيضاً مركزاً لبعض الصناعات ومنها صناعة الموازين (جمع ميزان) ودوايات الحبر والكوازين، على ما قاله المقدسي الذي دون معلوماته سنة (٣٧٥هـ = ٩٨٥م)، أي في أوائل العهد الدوستكي(١٠). كما إشتهرت هذه المدينة أيضاً بصناعة الستور والفرش(١١)، وإعتبر الثعالبي الذي عاش في العهد الدوستكي ستور نصيبين من أجود وأشهر أنواع الستور(١٢). ومن صناعات نصيبين أيضاً ماء الورد(١٣). وقد أبدى إبن بطوطه إعجابه بعطور نصيبين وقال لا نظير لها في الطيب، علماً أن وردها كله أبيض بحيث لايوجد فيه ورد أحمر(١٤).

ويظهر أن صناعة ماء الورد قد إنتقلت من نصيبين الى منطقة (الباب) من حلب، حيث ذكر إبن الشحنة أن ما يصنع في الباب من ماء الورد الجيد الذي يستعمل في الطب وأغراض أخرى يسمى بماء الورد النصيبي(١٥).

(٥) ميخائيل عواد، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي،ص٤٠. علماً أن تستر هي مدينة (شوش) في لورستان الكُردية.

(٦) ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان، ج١، ص١٤٣ أن الملك الساساني فيروز بن قباد هجّر سكان دياربكر وفارقين الى إيران، وبنى لهم مدينة أُرجّان بين فارس والأهواز. راجع أيضاً، تاريخ الكُرد وكُردستان، ص١١٧ لمحمد أمين زكي.

(٧) أحمد عطية القاموس الإسلامي، ج٢، ص٤١٤.

(٨) في كُردستان شجيرة تسمى (قازك - ڤازكێ پەزى و قەرەقاچ) ترتفع عن الأرض بمقدار متر أو أكثر بقليل كثيرة الفروع أوراقها شبيهة بأوراق الريحان وثمارها تشبه الباقلاء وحباتها تشبه حبات الفاصوليا بلون بنفسجي. تأكل دودة القز أوراق هذه الشجرة وتضع عليها شرانقها. كانت النساء تصنع منها ثياباً من الحرير السميك تسمى ثياب القز (كراسێ قەز). وكانت النساء في بوتان تلّون القماش بلون أسود. وهذا الحرير الكُردي بري أي لاتعتمد صناعته على تربية دودة القز وأوراق التوت.

(٩) حمدان الكبيسي، أسواق بغداد، ص١٩١.

(١٠) المقدسي، ص١٤١.

(١١) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٢٥٩.

(١٢) الثعالبي، ثمار القلوب، ص٣٥٨.

(١٣) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٣٨٣.

(١٤) رحلة إبن بطوطه، ص٢٣٧.

(١٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٢١. راجع أيضاً لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٢٥. حمد الله المستوفي، نزهة القلوب، ص١٠٦ باللغة الفارسية.

ومما كان يصنع في نصيبين وأعمالها أيضاً الشراب بكميات كبيرة، وقد فرض عليه الحمدانيون ضريبة بمقدار العُشر، وسموا هذه الضريبة بأموال اللطف. وقد جُبي من ضريبة شراب نصيبين سنة (٣٥٨هـ = ٩٦٨م) مبلغ خمسة آلاف دينار، وهذا يدل على أنه صُنع من الشراب في تلك السنة ما قيمته (٥٠) ألف دينار(١٦).

لانعلم هل إن الشراب ظل خاضعاً للضريبة في العهد الدوستكي أم لا؟ لقد ذكرنا سابقاً أن الخمر كانت تصنع من العنب في منطقة طورعبدين المجاورة لنصيبين، وذلك في العهد البابلي الحديث. ومن المدن الكُردية التي إشتهرت ببعض الصناعات مدينة أرزن (غەرزان)، التي كانت تصنع فيها المنسوجات من الأزر (مفردها إزار) المرفاع والأبراد والبطاين والنصافي، وكانت هذه المنتوجات تصدر الى البلاد الأخرى. أما ماردين فكانت مركزاً لصناعة نسيج (المرعز) على ما قاله إبن بطوطه(١٧).

وكان يُصنع من شعر الماعز من نوع مرعز (چور، مەرەز)، ومنه يصنع الكُرد زيهم الوطني (شال وشەپک-رانک وچۆخه). ويمكن أن يُفهم من إشارة إبن بطوطه هذه أن صناعة الشال والشپك الخاص بالكُرد من بين شعوب منطقة الشرق الأوسط كانت موجودة في القرن الرابع عشر. وهي صناعة قديمة خاصة بكُردستان وغير مستوردة من الخارج، وأغلب الظن أنها كانت ترجع الى تاريخ قديم. هذا مع العلم بأنه تُصنع الآن في ولاية ماردين عدة أنواع من هذا النسيج بألوان مختلفة، منها المطرز بأشكال هندسية والذي يسمى في كُردستان العراق بإسم (شرنخي). وفي بعض المصادر ذكر لـ(النسيج الماردیني الأبيض)، وهو الخام القطني السميك المعروف لدى الكُرد بـ(جاو). وتعتبر ولاية ماردين أكبر منتجة لهذا الخام، وخصوصاً القصبات التابعة لها مثل ئيستل، كەرەجوس، حسنكيف (حصن كيفا). وما كان ينسجه الحاكة المهرة هناك أفضل بكثير من حيث المتانة والبياض مما ينسج في مناطق أخرى من كُردستان، ولهذا فإنه كان يُصدر الى المناطق الأخرى مثل بوتان حتى خمسينات القرن العشرين. وصناعة الجاو القطني قديمة جداً في كُردستان، وكانت تعد بلاشك من أهم الصناعات الوطنية في العهد الدوستكي، كما كان يصنع نوع أقل سمكاً يسمى (مەڤروم)، ولاشك بأن صناعة هذا النوع الأخير كانت موجودة في العهد الدوستكي.

أما مدينة خلاط الواقعة على ساحل بحيرة وان، فكانت مركزاً لبعض الصناعات منها الجباب، وذلك في أيام الدولة الدوستيكة. وأشار الى الجباب الخلاطية الأمير الشاعر حسين بن داود البشنوي الفنكي أحد شعراء الدولة الدوستكية(١٨).

وكانت خلاط تستورد في القرن العاشر الميلادي، الذي تأسست فيه الدولة الدوستكية، كميات

(١٦) إبن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص٢٥١.

(١٧) رحلة إبن بطوطه، ص٢٣٨. وصل ماردين سنة ٧٢٨هـ. راجع لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٢٦. وفريال داود، المنسوجات العراقية الإسلامية، ص١٨٥. وأضافت أن ماردين كانت تنتج نسيجاً قطنياً حسن الملمس كان يستخدم للبطانة عرف بإسم (بوكاسيني) أو بكرام.

(١٨) أشار البشنوي الى ذلك في قصيدة جيمية في البيت التالي:

"ولا عيب فينا غير أن جبابنا خلاطية ما دبجتها النواسج"

راجع خريدة القصر، ج٢، ص٥٤١: قسم الأكراد الفضلاء.

كبيرة من القطن من القصبات الواقعة على خابور رأس العين(١٩)، لإستخدامها في صناعة النسيج وفي المجالات الأخرى. علماً أن خلاط كانت من أكبر وأهم مدن حوض بحيرة وان. ومن المحتمل أن الصبغ بـ(قرمز) كان معروفاً بين سكان المناطق الشرقية من البلاد الدوستكية. وكان الكُرد بدون شك في منطقة (دبيل) من إقليم آرارات كالأرمن هناك يصبغون الثياب وغيرها بالقرمز الأحمر.

وقد إشتهرت دبيل (دوين) ومنها أيوب والد صلاح الدين الأيوبي وكانت تحت نفوذ الكُرد(٢٠) إبان، وفي، العهد الدوستكي، بإستعمال القرمز في صبغ الثياب المرعزية و بالبسط والأنماط والتكك وغيرها(٢١) من منسوجات دبيل(٢٢). وصنع القرمز كان يتم بتجفيف دود القرمز ثم سحقه لتصبغ به الأقمشة، وإسم (القرمز) شائع الآن في كُردستان. وقد إستعمل الكُرد قديماً كالشعوب الأخرى الزعفران في صبغ المنسوجات باللون الأصفر والبرتقالي لوجود هذا النبات بكثرة في كُردستان. وقد

(١٩) الإصطخري، مسالك الممالك، ص٧٤.

(٢٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣٧٧.

(٢١) الإصطخري، مسالك الممالك، ص١٨٨. إبن حوقل، صورة الأرض، ص٢٩٤. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣٠٩. ذكر كال من الإصطخري وإبن حوقل أن سكان دبيل يصنعون القرمز من دودة تنسج حول نفسها كدودة القز، أي تصنع شرانق.

(٢٢) طلبت من السيد ألكساندر خجاتريان الأرمني من سكان أرمينيا أن يحدد لي موقع مدينة ديبل. فكتب الي رسالة مؤرخة في ١٩٧٩/٧/١٢ قال فيها ،أنها الآن خرائب وهي تخضع للتنقيبات منذ الخمسينات وتبعد عن العاصمة يريڤان بحوالي (٢٥) كلم وعن مدينة (أرطاشات) بـ(٥٠؟) كلم، وتسمى الآن بـ(دوڤين) ودبيل أيضاً. وفي الجانب السوڤياتي شيدت حديثاً هناك مدينة بإسم (دوڤين) تحمل إسم تلك المدينة. والنهر الذي بينها وبين (أردشاط) يدعى نهر (جرنى) وعُرف أحياناً بـ(نهر الكُرد). ودبيل إسم مستعرب. وقد كتب لي عنها في رسالة أخرى أيضاً وكان يعد رسالة دكتوراه وقد توفي الدكتور ألكساندر خجاتريان في يريڤان عام ١٩٩٩، حسبما ذكر لي الدكتور شاكرو خدو في ٢٠٠٠/١١/١٢ عندما قدم الى السلمانية. فبكيت لوفاته، وكنا نتبادل المعلومات الأثرية والتاريخية. وفي دائرة المعارف الإسلامية الجزء التاسع بحث بصدد (دبيل) حيث كانت دبيل من كبريات مدن أرمينيا في القرون الوسطى، وكان الكُرد يشكلون قسماً من سكانها، وكانت تحت نفوذ الكُرد في القرن العاشر الميلادي حسبما قاله المقدسي في (أحسن التقاسيم، ص٣٧٧). وقد ذكر إبن حوقل في (صورة الأرض، ص٢٩٤) أنها أكبر من (أردبيل) وإنها عاصمة أرمينية. هذا وكان قسم من قبيلة الروادية الكُردية الكبيرة أو قسم منها (الذي أسس دولة كوردية في أذربيجان في القرن العاشر الميلادي وكانت فرعاً من الهذبانية) يقيم في (ديبل). وكانت في أول الأمر عاصمة للدولة الشدادية الكردية التي قال بعض المؤرخين أن الشداديين كانوا من الروادين ايضاً. والكُرد يسمونها (دوين). وهناك عدد من القرى بإسم (دوين) في كُردستان ومنها (دوين) الواقعة في شمال أربيل. كانت بليدة ويقول كُردها أن صلاح الدين منها (أي من دوين أربيل)، علماً أن عشيرة روادي (رەوەند) التي منها عشيرة (رەوەندۆک) التي تقيم في برادۆست حالياً- كانت تتردد بين أربيل وأذربيجان، وكان قسم منها في (دبيل) وإدعاؤهم غير صحيح. راجع صورة الأرض، ص٢٩٠. ومعجم البلدان، ج١، ص١٤٦. ومن الواجب العلمي أن ننبه هنا القراء الكرام الى أن الأستاذ عبدالخالق سرسام، قد ذكر بأن صلاح الدين الأيوبي من قرية (دوين) الواقعة شمال أربيل. وقد نشر ذلك في الجرائد والمجلات وقنوات التلفزيون وفي كتاب بإسم (صلاح الدين الأيوبي من جديد) سنة (٢٠٠٠). فرددت عليه بمقال مفصل نشر في مجلة (هەزار مێرد) العدد (١١) الصادر في آذار ٢٠٠٠. وذلك بعد أن قمت بجولة في (دوين) والقرى المحيطة بها ليومين متتاليين وسجلت مقابلات صوتية وصورية مع العديد من سكانها، وصوّرت كذلك آثارها. ويشتمل مقالي على دراسة للرسوم الموجودة على مجموعة من شواهد القبور في دوين وبابا جيجك، كرسوم السيوف والخناجر والبنادق والمسدس وغيرها. وقد قال السيد سرسام بأن صلاح الدين قاتل الصليبيين بتلك السيوف دون أن ينتبه للأسلحة النارية الحديثة المجتمعة مع رسوم السيوف والخناجر... على تلك الشواهد التي تعود الى الفترة الأخيرة من عهد إمارة سوران.

وردت إشارة تاريخية الى أن بلاد ميديا القديمة (أي كُردستان) كانت أكبر موطن للزعفران. وفي القرن العاشر الميلادي كان الزعفران يزرع في بلاد الشام وإيران لإستعماله في الصباغة(٢٣). كما إستفاد الكُرد في صباغة المنسوجات من مجموعة من النباتات كقشور الرمان والعفص ومن ثمرة نفس الشجرة المسماة بالكُردية بـ(گلور) وعرق السوس وكذلك الصباغة ببول وروث الحيوانات(٢٤). لقد ذكرنا في معرض الحديث عن النسيج والأقمشة في موضوع (العلاقات مع الدولة الفاطمية) أنه كانت تصنع في مدينتي (تينيس) و(دمياط) سنوياً في عهد نصرالدولة الملابس الرسمية الخاصة بالأمراء وكبار رجال الدولة، وكان يُنقش عليها أو على بعضها شعار الدولة الدوستكية. وكانت المدينتان تنتجان أفخر أنواع الأقمشة والملابس وهما من الوجه البحري في مصر.

صناعات أخرى

كانت توجد في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي صناعات أخرى كصناعات الأحذية ودباغة الجلود والصابون. ومازال الكُرد يصنعون الصابون حتى الآن بكميات كبيرة في كُردستان تركيا وخاصة في بوتان. إذ يصنعونه من زيت الحبة الخضراء (كەزوان - قەزوان) لوجود تلك الشجرة بكثرة في كُردستان، ومنها ما هو بري وملكيته مشاعة. والمعتقد بأن الكُرد عرفوا صناعة الصابون من الحبة الخضراء المذكورة منذ عهود بعيدة. وتجدر الإشارة الى أن مدينة (الرقة) القريبة من كُردستان الوسطى كانت في العصر الدوستكي من أكبر مراكز صناعة الصابون، وكانت تصدر كميات كبيرة منه الى الخارج. ولا بد بأن الدولة الدوستكية كانت تستورد منها الصابون عند الحاجة وقد جاء إسم صابون (الرقي) من المدينة نفسها. أما بالنسبة للصابون في تأريخ كُردستان القديم، فقد إستعمل سكانها نبات (ئەسپون) في تنظيف الملابس وغيرها كنوع من الصابون. وقد إكتشفت المديرية العامة للآثار في العراق أثناء التنقيب في تل (چراغ) في سهل شهرزور بمحافظة السليمانية (الذي يرجع تاريخ الإستيطان فيه الى الألف الرابع قبل الميلاد) آثاراً لنبات (ئەسپون) من ذلك العصر(١).

(٢٣) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣١٠.

(٢٤) في ١٩٩٩/٤/٦ سجلت معلومات صوتية للسيد خوشناو أمين عزيز من السليمانية بخصوص مواد الصباغة عند الكُرد، وللمذكور معرفة جيدة بالفرش وكيفية نسجها خاصة في منطقة (بيجار) الكُردية التابعة لسنندج، والتي سمعت من الكثيرين بأن فرُشَها تعد من أفضل أنواع الفرش في إيران. وذكر السيد خوشناو بأنه يوجد الآن في بيجار فرش بحجم مترين ونصف بعشرين ألف دينار. وأن صنّاع الفرش الكُردية في (سنه) و(بيجار) كانوا يستخدمون في صباغة أصواف فرشهم روث الحيوانات وبولها وخاصة الأبقار. إذ كانوا يبدلون نوعية علف تلك الأبقار كل شهر لإحداث تغيير بسيط في لون بولها، وكان التغيير حساساً ودقيقاً وذلك للحصول على الدرجات اللونية المطلوبة. كما إستخدم هؤلاء في تلميع المنسوجات نباتاً إحتفظوا بسرية إسمه بحيث لايعرفه الصنّاع الفرس كما لايعرفه قسم من الصناع الكُرد أنفسهم. وتلميعهم للفرش تلميع عجيب يعطيه لمعة الحرير. وقد إستخدموا مع نبات التلميع المذكور قلنسوة البلوط الأخضر. كما إستعملوا في الصباغة أيضاً غدد الحيوانات بعد ذبحها، كما إستخدموا الماء (ماء المطر) الذي يبقى في سيقان الأشجار الهرمة مدة طويلة ويتحول لذلك الى نوع من الحمرة. وتوجد أحياناً سبع درجات (تونات) من اللون الأحمر تطلى به الفرش (مافور)، كما إستفادوا من نباتات أخرى للصباغة.

(١) راجع مقال (Hans Helbeek) من متحف كوبنهاگن والمترجم الى الكُردية من قبل (كُردستان) والمنشور في مجلة (هەزار ميّرد) العدد ٣ سنة ١٩٩٨ ص٧٧. علماً أن السومريين كانوا يمزجون رماد نبات الحلفا بالزيت والطين كنوع من الصابون.

هذا وقد إستخدم الكُرد في سهل رانية، والمناطق الأخرى، نبات أسپون في غسل ملابسهم وأجسامهم حتى عشرينات القرن العشرين أثناء فترات شحة الصابون. وكان ناصر خسرو قد رأى أثناء مروره بالبلاد الدوستكية الكُرد وهم يصنعون القطران من الأخشاب الرطبة بالقرب من موقع (أويس القرني) عند مدخل (گەلى بدليس)، وذكر أنهم يصدرونه الى الخارج[٢]، وكان ذلك القطران يستخدم لأغراض طبية مختلفة[٣].

تمليح وتجفيف الأسماك

من الصناعات الموجودة في كُردستان في العهد الدوستكي، صناعة تجفيف وتمليح أسماك بحيرة وان[٤]، وكان لصيد أسماكها من نوع الطريخ[٥] ولتجفيفه أهمية كبيرة، حيث كانت مصدراً من

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٠.

(٣) ذكر داود الأنطاكي في كتابه الطبي (تذكرة أولي الألباب الجامع للعجب العجاب، ج١، ص٢٦١) كيفية صنع = القطران فقال: هو نوعان، النوع الغليظ البراق الحاد المعروف بـ(البرقي) ويصنع من شجرة (الشربين- نوع من العرعر) (أي هەڤرست بالكُردية) والتي تتواجد بكثرة في كُردستان، وخاصة في الجبال العالية شبه الباردة. أما النوع الثاني، فيصنع من شجرة الإرز أو السدر. حيث تقطع الأشجار وتجعل في قبة مبنية على بلاط سوي فيها قناة الى الخارج، وإذا ما أوقدت حولها النار فإنها تقطر. أما مجال إستخدامه الطبي، فقد ذكر بأنه يستخدم لعلاج أوجاع الأذن والصدر والسعال والربو وتقوية الكبد وطرد الديدان ووضع الجنين ومنع الحمل وللحساسية (الحكة) والجرب. كما يستخدم لمنع توليد القمل وهو مفيد للبرد والطاعون والوباء ولتحنيط أجساد الموتى حيث يحفظها من التفسخ، ولهذا سمي بـ(حياة الموتى)، بالإضافة الى أغراض طبية أخرى ولغير ذلك من الأمراض.

(٤) بحيرة وان: مثلثة الشكل إرتفاعها (١٧٢٠) متراً ومساحتها (٣٧٦٤) كم٢ وطولها من تطوان غرباً الى بندي ماهي شرقاً (١٢٥) كلم، وعمقها من (١٠-١٠٠) متر. يرى الجيولوجيون أن بحيرة وان وكذلك أورميه والبحيرات المرّة في إيران هي من بقايا بحر (تثس)، الذي غطى كُردستان ثم إنحسر عنها عدة مرات في العصور الجيولوجية. وكان البحر يترك في كل مرة طبقة رسوبية، كانت تمتد في بعض العصور من أسبانيا الى جبال خنكان في الصين. وبعد إنسحاب بحر تثس إنحصرت المياه بين التعاريج الجبلية، التي تكونت بسبب الحركات الأرضية التكتونية وإنعدم وجود منفذ لخروجها. وهكذا تكونت بحيرتا وان وأورميه. وتوجد في أطراف بحيرة وان مجموعة من البحيرات الصغيرة أكبرها بحيرة (آرجاك) الواقعة في شرقها ومساحتها (١٠٠كم٢)، وبحيرة (نازك - نازوك)، وبحيرة (بولانق - بلانوخ). وتقع نازوك في شمال شرق جبل نمرود البركاني، بينما تقع بولانق في غرب ملازگر ومأؤها عكر دائماً. وهذه البحيرات الواقعة في أطراف بحيرة وان تتجمد في الشتاء لعدة أشهر فيسير الناس وتسير القوافل فوقه. وتقع على سواحل بحيرة وان مجموعة من المدن الكُردية الجميلة ذات المواقع الجذابة منها: وان، وسطان، أرديش، الجواز، خلاط، تطوان ورشادي. وأكبر تلك المدن وان، وحولها مواقع أثرية منها (قلعة وان) الأثرية المنيعة التي يعود تاريخها الى عهد حكومة أورارتو (الخلديين)، أي الى ما يقارب ثلاثة آلاف سنة، وتوبراق قلعة عاصمة أورارتو التي عثر فيها على كثير من الآثار القديمة. وفي شتاء ١٩٩٥-١٩٩٦ عندما كنت في إستنبول حدثت ظاهرة جيولوجية في بحيرة وان، حيث إرتفع مستوى مائها وغطى أرضية مينائها، وقسماً من شارع الميناء. فخاف سكان وان من غرق المدينة في حالة إستمرار إرتفاع منسوب المياه. وأحدثت الظاهرة ضجة في الصحف والإذاعات ومحطات التلفزة التركية. ولم يُعرف سبب لذلك الإرتفاع، ولكن قيل بأن نهراً إنفجر في قاع البحيرة. إلا أن منسوب مياه البحيرة أخذ بعد فترة بالهبوط. وذكرت وسائل الإعلام بأنه حدث مثل هذا الإرتفاع في منسوب مياهها مرات أخرى في التاريخ، كما أذيع بأن مياه البحيرة قد أغرقت إحدى المدن في التاريخ البعيد. وقد سمعت مرات عدة من كثيرين من سكان منطقة وان في الخمسينات حينما كنت هناك، عن وجود آثار إحدى المدن في قاع البحيرة بالقرب من ساحلها عند مدينة وان، وهو خبر متواتر بين الناس.

مصادر الرزق. وكان السكان يصطادونه بكميات كبيرة ويصدره التجار الى بلاد الشام والعراق وإيران وأفغانستان. وقد ذكر ياقوت الحموي بأنه رأى أسماك بحيرة وان في بلخ، وسمع أنه توجد في غزنه أيضاً(٦)، أي في بلاد أفغانستان. كما ذكر القزويني أنها تصل الى الهند(٧). أما المقدسي فعدّها من بين واردات وصناعات أرمينية، وذكرها ضمن التجارة القادمة من الموصل(٨). هذا مع العلم بأن صناعة تمليح وتجفيف الأسماك كانت موجودة منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد في العراق(٩).

وكان عدد من المؤرخين والجغرافيين القدماء قد ذكروا ذلك بإعجاب ناشيء من كون الأسماك لاتظهر في البحيرة مدة عشرة أشهر، ولكنها تخرج في شهرين وبكثرة تتيح للسكان إصطيادها بأيديهم. وما قاله أولئك المؤرخون صحيح لأن الأسماك لاتظهر هناك إلا في موسم التناسل. فتخرج حينها الى الأنهار التي تصب في البحيرة مثل نهر (حافة سور) الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية للبحيرة. وعندئذ يقوم السكان بإصطيادها بالأيدي وبالزنابيل ويملؤون سلالهم دون عناء يذكر، وكنت قد شاهدت ذلك في الخمسينات. وقد عُرفت أسماك تلك المنطقة بالطريخ في المصادر الإسلامية، حتى إن المصادر الإسلامية ذكرت البحيرة بإسم (بحيرة الطريخ) أيضاً. ومما يدل على الأهمية الإقتصادية لصيد أسماكها، إستملاك البحيرة من قبل محمد بن مروان الأموي والي أرمينية. وظلت البحيرة مستملكة بينما كانت مشاعة سابقاً لكل الناس حتى عهد الخليفة الأموي مروان الثاني، ثم إستولى عليها العباسيون مثل ممتلكات مروان الأخرى(١٠). وفي الحقيقة ظلت البحيرة خاضعة للضريبة العباسية، فقد ورد مقدار ضريبتها في قائمة كل من الجهشياري وإبن خلدون لخراج أرمينية في العصر العباسي الأول. وكانت ضريبتها عشرة آلاف رطل من الطريخ(١١). وتقابل طريخ باليونانية كلمة (Thrissa) وهو يقوم مقام الأسماك المعلبة ويقابله سمك (نن)، الذي كان يتم إصطياده في شواطيء إسبانيا وشمال أفريقية(١٢).

ولاشك أن تمليح وتجفيف أسماك هذه البحيرة للحفظ كان موجوداً في العهد الدوستكي أيضاً، أما الآن فلا يجففها إلا قليل من الناس. وتفيد المصادر التركية بأن ما يتم إصطياده سنوياً من أسماك

(٥) الطريخ : جنس من الأسماك له (١٥) نوعاً منتشرة في بحار العالم، رؤوسها كبيرة مصفحة هرمية الشكل وأجسامها من ١٢-٢٠ سنتيمتراً، ومنها الطريخ الأشهب والرمادي والصغير والكبير. راجع الموسوعة في علوم الطبيعة للمهندس الزراعي إدوار غالب، ج٢، ص٩٧.

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٨.

(٧) القزويني، آثار البلاد، ص٥٢٥.

(٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣٨٠، ١٤٥.

(٩) ليو أوبنهايم، بلاد مابين النهرين، ص٥٩.

(١٠) الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ص٢٩٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٠٣. حسن أحمد وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٢١٢.

(١١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٨٦. إبن خلدون، مقدمة، ١٨٠.

(١٢) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ص٣٠٦.

بحيرة وان يبلغ (٥٠-٦٠) طناً. أما بحيرة نازوك الواقعة في شمال غرب بحيرة وان، فإنها شبيهة تماماً في موسم أسماكها ببحيرة وان. وقد تحدث عن أسماك نازوك المؤرخ والرسام شرفخان أمير بدليس في (ورقه ١٢١ من شرفنامه، مخطوطة مكتبة بودليان، رقم ٣١٢)، وهي بخط المؤلف وهي النسخة الأولى من الكتاب، حيث ذكر بأنه وضع يده على صيد أسماكها وأجّر صيده لعدة سنوات لصالح مالية إمارته، ولكن صادف ذلك عدم ظهور الأسماك في تلك السنين.

الصناعات المعدنية

يعود تاريخ الصناعات المعدنية في كُردستان الى تسعة آلاف سنة. فقد كان سكان (جايونو) الواقعة في شمال مدينة دياربكر بـ(٥٠) كلم والقريبة من منبع نهر دجلة، يصنعون أدوات من النحاس على ما سنذكره. ولعل ذلك من أقدم الإكتشافات الأثرية في مجال التعدين والصناعات المعدنية. فقد سبق سكان كُردستان غيرهم في مجالات معرفة المعادن والزراعة والنسيج والعمارة، وجميعها تعد من أسس الحضارة البشرية.

لقد أشار الفارقي في (ص١٤١ و١٤٥) الى باب النحاس الذي تم صنعه بشكل فني بديع لنصر لدولة بمدينة (النصرية)، التي وضع تخطيطها وإختار موقعها على ضفة نهر ساتيدما (نهر باطمان) سنة (٤٢٣هـ = ١٠٣٢م). وقد تم نقل هذا الباب بعد زوال الدولة الدوستكية الى جامع فارقين. وقد وجده الفارقي ووجد إسم نصرالدولة مكتوباً عليه وإعتبره، نظراً لأهميته من الناحية الفنية، من جملة آثار نصرالدولة. ولما قدم ناصر خسرو الى فارقين في عهد نصرالدولة، شاهد باباً حديدياً مشبكاً في كنيسة دياربكر وأبدى إعجابه به على ما ذكره في (سفرنامه، ص٤٨).

وتجدر الإشارة الى أن مدينة دياربكر أشتهرت بصناعاتها وتحفياتها المعدنية، وقد أعجب بها أوليا چلبي، الذي زارها في القرن السابع عشر. وقال إن عدد الحدادين وصنّاع التحفيات الذهبية والفضية والمعدنية المكفتة بالذهب والفضة أكثر من سائر أصحاب المهن والصناعات الأخرى. وأن رساميها ونقّاشيها تفوقوا على (ماني) و(بهزاد)، وأن ما يصنع في دياربكر من السيوف والخناجر والرماح والنشاب وطبرزين والمسدسات مشهورة في العالم. وإن الحدادين يضربون أثناء العمل بمطارقهم على أنغام مقامات (سيگاه) و(الحسيني) وغيرها، وهم بأنفسهم يغنون هذه المقامات أثناء العمل ومن يسمعهم يقف عن الحركة(١).

ولاشك أن صنّاع دياربكر قد ورثوا الكثير من صناعاتهم ومهاراتهم من أسلافهم الذين عاشوا في عهود مختلفة من القرون الوسطى، منها العهد الدوستكي عهد الإستقرار والإزدهار التجاري والصناعي والعمراني الذي أشار إليه (إبن بطلان) وغيره. وقد سبقت الإشارة اليه في أوائل موضوعنا (الحالة الإقتصادية). وتوجد الآن نماذج راقية من تلك الصناعات التي تعود الى القرون

(١) أوليا چلبي، سياحتنامه، ج١، ص٤٩، ٦٢: الترجمة الكُردية لسعيد ناكام.

طبل

الوسطى، وهناك صور لبعضها في كتاب (دياربكر تاريخي) لبسري كونيار. وفي تموز ١٩٧٧ وجدت في متحف الأوقاف بإستنبول طبلاً من الحديد (تورك إسلام صنعتلري موزەسي، رقمه ٢٨٣٢) تزيّنهُ الزخارف الجميلة مع كتابة كوفية، ويعود الطبل الى القرن الثاني عشر على ما جاء في تعريفه. صورة الطبل في الصفحة التالية.

ومما لاشك فيه أن صناعات العالم الفيزيائي والمهندس الميكانيكي والرسام والفلكي إبن رزاز الجزري، الذي عمل في مدينة حصن كيفا ومدينة دياربكر (آمد) في القرن الثاني عشر، وألّف في آمد أعظم كتاب في الميكانيك في العهد الإسلامي على الإطلاق، تركت تأثيرها في صناعات دياربكر وتقدمها وفي مهارة صنّاعها ولا بد أن يكون له تلاميذ فيها منهم على ماأرى الأمير الأرتقي الملك الصالح محمود بن نورالدين بن قره أرسلان. كما إن إبن الرزاز نفسه قد تأثر بالصناعات التي خلفتها الدولة الدوستكية، سواء كانت ساعة بنكام في جامع فارقين، أو الباب الذي عمله نصرالدولة لقصره في مدينة (النصرية)(٢)، الذي ذكره الفارقي المعاصر لإبن الرزاز بإعتباره من أحد الأعمال المهمة لنصرالدولة. وكان هذا الباب في زمن إبن رزاز أمام باب جامع فارقين ويستبعد جداً عدم رؤيته إياه. صنع إبن الرزاز باباً فنياً لقصر الأمير الأرتقي الملك الصالح محمود بن نورالدين في مدينة دياربكر وإفتخر بذلك الباب بقوله: "والى رؤيته تُشد الرحال، إذ كان في الحقيقة الدرة اليتيمة والمتاع نفيس القيمة..."(٣).

(٢) بخصوص مدينة (النصرية)، راجع موضوع الآثارالعمرانية.

(٣) راجع (مقدمة في علم الميكانيك في الحضارة العربية، ج١، ص١٠١، لماجد عبدالله الشمس).

لقد عمل إبن رزاز الباب من النحاس وأذاب النحاس الأصفر وصنع منه أجزاء الباب ونقوشه. وفي أواخر كتابه شرح لكيفية صنع ورسم أجزاء منه، فثمان صفحات من الورقة (٢٢٩-٢٣٢) من كتابه (الجامع بين العلم والعمل في صناعة الحيل) النسخة المخطوطة في أياصوفيا بإستنبول والمرقمة (٣٠٦٠٦) وعندي نسخة مصورة عليها - تتحدث عن الباب. مع أن الصفحات الأخرى بصدده غير موجودة في النسخة التي كانت تحتوي على الوصف العام للباب. ومن المحتمل جداً أن المستشرقين الذين سرقوا عدداً من الرسوم الموجودة في هذه النسخة، سرقوا ذلك المقدار أيضاً. وهذه بعض الرسوم من أجزاء الباب وزخارفه ومطرقة الباب في صورة ثعبانين يحاولان إلتهام رأس أسد وقد مدا لسانيهما الى عنقه. وقد أشار المؤلف في الورقة (٢٣٢) الى أن طريقة صنع بعض ما صنعه من الباب كان معروفاً عند "أصحاب هذه الصناعة". وقد ذكر القزويني أن الحدادين في مدينة خلاط كانوا يصنعون أقفالاً لايوجد مثلها في البلدان الأخرى(٤).

أما المقدسي فقد ذكر الموازين والدوايات (أي دوايات الحبر) التي كانت تُصنع بنصيبين، كما كانت الموازين تصنع بحرّان(٥). وكانت الآلات الفلكية تصنع في حرّان أيضاً(٦).

الصناعات الميكانيكية

وصل إلينا من الصناعات الميكانيكية في الدولة الدوستكية، التي كانت حركتها تعتمد على الآلات المتحركة، ما يلي:

١- دولاب صنعه نصرالدولة ونصبه على نهر باطمان لضخ المياه الى مدينة (النصرية)، التي خططها هناك على ما قاله الفارقي (ص١٤٥) من تاريخه، مع إنه لم يكتب وصفاً لذلك الدولاب الذي كان يرفع مياهاً كثيرة من نهر باطمان تكفي لسد حاجة المدينة من حمامات ودور وحدائق وأحواض. ولاشك بأنه لم يكن الدولاب المعروف بـ(الناعور) الشائع ذي القدرة المحدودة الذي يدار بالحيوانات، وإلا لما إستحق الذكر، وإنما لا بد أن يكون مضخة ميكانيكية من نوع الدواليب (المضخات) العمودية الميكانيكية الموجودة في كتاب إبن رزاز الجزري.(١)

(٤) القزويني، آثار البلاد، ص٥٢٤. وتجدر الإشارة هنا الى أن إبن رزاز الجزري قد عمل قفلاً يقفل على صندوق بإثني عشر حرفاً. وقال هو عبارة عن "أربع دوائر على مربع مستطيل، ودون كل دائرة دائرة وبينهما ستة عشر خطاً، وبين الخطوط ستة عشر حرفاً تقوم مقام ثمانية وعشرين حرفاً". وقد كتب إثنتي عشرة صفحة في كيفية صنعه (ورقة ٣٢٤-٣٣٠ من نسخة أياصوفيا) وأوضحها بالرسوم. فهذا القفل الفني شبيه بأقفال الحقائب التي تغلق وتفتح بالأرقام السرية في الوقت الحاضر ولانعلم هل أن إبن رزاز كان أول مخترع لهذا النوع من الأقفال أم لا؟

(٥) أحسن التقاسيم، ص١٤٥.

(٦) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص٣٦٢.

(١) خصص الجزري ثمان صفحات من كتابه (ورقة ٢٢٤-٢٢٨ من نسخة أياصوفيا) لشرح كيفية صنع مضخة (الدولاب) بعدة أنواع لرفع الماء الجاري من عمق عشرة أمتار أو أكثر من النهر عن طريق أنبوب وآلات ميكانيكية حيث قال: "الشكل الخامس من النوع الخامس وهو آلة ترفع نحواً من عشرين ذراعاً بدولاب من ماء جارٍ وينقسم الى=

ساعة بنكام

من المعالم الحضارية للدولة الكُردية ساعة كبيرة صنعتها في العاصمة فارقين بموجب قوانين ميكانيكية ورياضية وفلكية دقيقة. وكان وجود مثل تلك الساعة نادراً في الشرق الأوسط حتى ذلك التاريخ. لقد ذكر الفارقي في (ص١٤٥) من تاريخه أن "عمل نصرالدولة البنكام بجامع فارقين وغرم عليه من ماله وكتب عليه إسمه"، وكرر الفارقي ذكر البنكام(٢) لأهميته وذلك ثلاث مرات في تاريخه، لكنه لم يبين تاريخ صنعها ولا إسم العالم الذي صنعها. ومن المحتمل جداً أنه كان في

=فصول ثلاثة، الفصل الأول أقول أن هذا الشكل يصنع على ضربين أحدهما بأن يتخذ الدولاب وهو مدير الآلة فرجات في محور منتصب والماء يدير الفرجات كأرحاء، وهي في الطريق الأسفل من المحور، وهو يدور على سُكُرجَه على ما جرت به العادة وطرفه الأعلى يدور في حلقة ثابتة، وعلى نهاية هذا الطرف قرص مستوي الوجه وعلى حافة القرص وتد منتصب وهذا الوتد مدير آلة ترفع الماء..." الفُرجات: پروانات، مراوح. والسكرجه: وعاء معدني في أسفل الدولاب. وهذه صورة نوعين من دواليب الجزري حيث تشاهد الأجزاء فيها من العمود الحديدي والفرجات (بشّارة - پروانات) التي تدفع الماء الى أعلى والتي تكون داخل الأنبوب وقد رسم في الفصل الثاني الأنبوب (بَرَخ) الواسع من الأسفل والضيق من فتحته العليا، ليكون دفع الماء الى الخارج قوياً. إن الآبار الإرتوازية حالياً تعمل بنفس الأسلوب. أما الدولاب الذي يدير من فوق عمود الفرجات، فكان يدار بواسطة الحيوانات أو بطريقة أخرى.

(٢) لفظ بنكام على وزن (سندان) بكاف فارسية أي (بنگام) وكذا بنكان وفنكان وفنجان ومنجانه ومنتانه - أُطلق على الساعات بأنواعها: الرملية، والمائية والشمسية والدورية، أي التي تعمل بالدواليب أي الآلات الميكانيكية. وإستعمل المؤلفون لفظ (بنكام) إسماً لعلم يبحث عن الآلات المقدرة للوقت (أي الساعات) أي علم الساعات. وأصل الكلمة (منگنه) أي الآلة المسننة أو غير المسننة التي تدور. بخصوص البنكام راجع، حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٢٥٥. وطاش كبرى زاده، مفتاح السعادة، ج١، ص٣٧٨. ومحمد علي التهانوني، كشاف إصطلاحات الفنون= =ج١، ص٥٣. والدكتور مصطفى جواد، بحث بعنوان "علم البنكامات عند المسلمين في القرون الوسطى وهو علم الساعات". وقد نشر البحث بعد خمسة أيام من وفاته في جريدة الثورة (أو ملحقها) في ١٩٦٩/١٢/٢٢. وقد توفي مصطفى جواد علامة زمانه في السابع عشر من ذلك الشهر، وأصبح بحثه هذا مفتاحاً لي للبحث عن هذا الفن والبحث عن الجزري والحصول على نسخة مصورة من كتابه. ومن ثم البحث عن الفن التشكيلي في كُردستان الوسطى والبحث عن رسوم (شرفنامه) للمؤرخ والرسام الكُردي الأمير شرفخان البدليسي، التي نشرت دراستي حولها في كتاب بإسم (تابلۆكانى شەرەفنامه، الذي طبع سنة ١٩٩١ بالسويد بالكرمانجية الشمالية بالحروف اللاتينية وفي أربيل سنة ١٩٩٨ بالكرمانجية الجنوبية"، والذي أعتبر من أجود دراساتي فأنا مدين لمصطفى جواد، وقد كنت معجباً به أيما إعجاب وهو الذي قال لي: "أنا بين الأكراد والتركمان وذلك في دور التحقيق...". وكان أصله من (قره تپه) إحدى نواحي قضاء كفري الكُردي. هذا وأستعمل (منكام) بدل بنكام أيضاً والجمع (مناكيم)، راجع شمس الدين محمد بن أبي الفتح محمد الصوفي، الاعلام بشد المنكام. الذي ألفه في الساعات الرملية: نسخة مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب جامعة بغداد تحت الرقم (٤٠٦). لكي يحصل القاريء على فكرة عن الساعات القديمة، علينا بكتابة سطور قليلة بهذا الخصوص. فنقول إن الساعة المائية كانت معروفة لدى السومريين وكانوا يسمونها (دب دب)، وكانت الساعة المائية مكونة من إسطوانة مدرجة يجري منها الماء الى خزان تحتها وكمية الماء المنساب كانت هي التي تعطي مقياس الزمن وكانت موجودة لدى المصريين أيضاً. أما الساعة الشمسية (المزولة)، فكانت كالساعة الرملية قديمة. وهي عبارة عن قصبة أو عود تُغرس في سطح مستو لتعكس القصبة أو العود ظلاً يتغير بتغير مسار الشمس، فيعرف بها الوقت. أما الساعة الرملية، فكانت تعمل بإستعمال الرمل بدلاً من الماء لمعرفة ساعات الليل والنهار وبعملية مشابهة. أما مصطلح الساعة الزمانية التي تسمى «الساعة الشمسية» ايضاً، فيعني الساعة ذات الوحدة العددية الثابتة وهي (١٢) ساعة لكل من الليل والنهار بالتساوي سواء كان اليوم أطول من الليل أو بالعكس، صيفاً كان الوقت أم شتاءً، ولذلك سميت ايضاً الساعة المستوية. راجع ماجد عبدالله الشمس، مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية، ج١ ص ٤٥-٤٨. ومرگريت روثن، علوم البابليين، ص١٠٩.

دولاب إبن رزاز

سنوات (٤١١هـ = ١٠٢٣م) حيث جدد نصر الدولة فيها عمارة الجامع الى سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٨-١٠٣٩م)، إذ ذكر ذلك بين حوادث هذه الفترة. ولم يذكر الفارقي أيضاً وصف لساعة (البنكام) هذه التي شاهدها مراراً في مدينته، رغم أهميتها بالنسبة لذلك العصر لندرتها في البلاد الإسلامية وغيرها. ولاشك أنها كانت ساعة كبيرة ربما كانت تعمل بالماء أو الشمع المذاب أو بواسطة آلات ميكانيكية كثيرة، وبمقاييس رياضية وفلكية أيضاً مرتبطة بحركة الشمس في درجاتها والقمر بمنازله. وربما كانت مرتبطة بالبروج الفلكية الإثني عشر في دورانها. وكل ذلك لضبط قياس الزمن في الليل والنهار والأوقات الفلكية أيضاً. وما قاله الفارقي من أن نصرالدولة "غرم عليه من ماله" يدل على أنها كلفت مبلغاً كبيراً من المال. وهذا بدوره يدل على أن الساعة كانت كبيرة ومن نوع البنكامات المعقدة، التي كانت في شكل غرفة مثل ساعة كنيسة أياصوفيا في العاصمة البيزنطية (قسطنطينية) التي صنعت قبلها، وساعة (باب جيرون) بدمشق التي صنعت بعدها، وساعة كنيسة أنطاكية التي أشار إليها الطبيب (إبن بطلان) في كتابه (دعوة الأطباء- الذي ألفه سنة ٤٥٠هـ = ١٠٥٨م)، أو أنها من نوع بعض ساعات وإختراعات العالم إبن رزاز، التي وردت أوصافها في كتابه (الجامع بين العلم والعمل في صناعة الحيل)(٣).

(٣) لكي تتكون لدى القاريء فكرة عن ساعة الدولة الدوستكية ندرج فيما يلي وصفاً لكل من ساعة كنيسة أياصوفيا وساعة باب جيرون. فالساعة الدوستكية كانت مشابهة للساعات المذكورة القريبة منها زمنياً، فالأولى أقدم من الساعدة الدوستكية، أما ساعة باب جيرون فمتأخرة عنها. كانت ساعة أياصوفيا حسب (إبن رسته أحمد بن محمد في القرن التاسع في الأعلاق النفيسة، ونقل عنه بإيجاز السيد ماجد في كتابه المذكور، ص٤٩: كان في مدخل الكنيسة مجلس وأربعة وعشرون باباً صغيراً، وكلما مضت ساعة من الـ٢٤ ساعة ينفتح أحد هذه الأبواب ثم ينغلق تلقائياً. أما ساعة باب جيرون (باب الساعات) التي صنعها محمد بن علي بن رستم الساعاتي الخراساني عام (٥٦٥هـ = ١١٦٩م) فقد شاهدها إبن جبير سنة ٥٨٠هـ=١١٨٥م ووصفها في رحلته (ص٢١٨ و٢١٩، طبعة بيروت ١٩٦٨) وكانت بالمدرسة المستنصرية ببغداد ايضاً ساعة أخرى مشابهة صنعت سنة ٦٣٣هـ= ١٢٣٥-١٢٣٦م.

ولم يشر الجزري الى ساعة فارقين، كما لم يذكر إسم الأستاذ أو الأساتذة الذين درس عليهم الميكانيك والرياضيات والفلك وكذلك فن الرسم وعلم الساعات. ولم يذكر كذلك إسم المعنيين بها عدا (يوسف الأصطرلابي) والملك الصالح محمود الأرتقي، الذي يحتمل كونه أحد تلاميذ الجزري. وكان في عهده علماء آخرون في هذا المجال، مثل الطبيب فخر الدين (محمد بن عبالسلام المارديني) المتوفي سنة (٥٩٤هـ = ١١٩٩م)(٤)، وتلميذه سديد الدين الحاني (محمد بن عمر) المعروف بإبن رقيقة وهو من سكان مدينة حانى (هيْنئ)، وهي الآن مركز أحد أقضية دياربكر. فقد عمل بعض الصناعات الميكانيكية والآلات الفلكية وإخترع الة لسحب الماء الأسود والأبيض من العين. ولسديد الدين أكثر من عشر مؤلفات أكثرها في الطب، وقد سافر الى الشام وأصبح أحد أطباء المستشفى الكبير بدمشق وتوفي فيها سنة (٦٣٥هـ = ١٢٣٧م)(٥).

لقد قدم الى كُردستان عالم كبير في الرياضيات والهندسة والفلك هو (نجم الدين أحمد بن السري الهمداني)، الذي إستدعاه الأمير حسام الدين تمرتاش الأرتقي (٥١٦هـ - ٥٤٧هـ) وكان أستاذ فخرالدين المارديني وله ترجمة في (عيون التواريخ، ج١٢، ص٤٠٠) للكتبي. إن الجزري وإن لم يذكر هؤلاء لكنه أشار الى وجود ميكانيكيين مثله، وقال إنه إستفاد منهم في بعض أعماله الميكانيكية. وقد أشار إليهم في (الفصل الأول من الشكل الثاني من النوع السادس) من أواخر كتابه (ورقة ٢٣٢، من نسخة أياصوفيا). هذا ولا ندري من أين أخذت الدولة الدوستكية فكرة صنع هذه الساعة، والتي كان لها تأثير على تقدم ورواج علم الميكانيك بما فيه علم الساعات في دياربكر، وعلى الأرتقيين الذين عملوا على تقدم ذلك العلم في القرن الثاني عشر. كما كان لمستشفى تلك الدولة الكُردية في العاصمة فارقين ولمدرستها الطبية تأثير مماثل في تقدم الطب في ذلك الجزء من كُردستان خلال العهدين الدوستكي والأرتقي. ولما كانت ساعة يوسف الأصطرلابي لاتخلو من إحتمال كونها ساعة الدولة الدوستكية، وإن ثبت في يوم ما أنها ليست كذلك فهي مشابهة لها بصورة عامة على ما نتوقع لذا من الأفضل أن ندرج هنا وصفها الذي أورده الجزري في كتابه(٦) (ورقة ٥-٦ من نسخة

(٤) راجع ترجمة فخر الدين المارديني في (طبقات الأطباء، ج١، ص٢٩٩-٣٠٠) لإبن أبي أصيبعة، و(تاريخ الحكماء، ص٢٩٠-٢٩١) للقفطي. نشرت نبذة عن حياته في جريدة العراق، عدد ١٩٨٢/١١/٢٧.

(٥) لسديدالدين (إبن رقيقة) ترجمة في طبقات الأطباء (ص٧٠٦ وغيرها) وكان قد عمل مع مؤلفها إبن أبي أصيبعة في المستشفى الكبير. وإبن العماد، شذرات الذهب، ج٢، ص١٧٧. والزركلي، الأعلام، ج٨، ص٥٦. وقد نشرنا بخصوصه مقالاً في جريدة العراق عدد يوم ٢١ و٢٨ تشرين الأول ١٩٨٢.

(٦) أعتبر كتاب الجزري أكبر كتاب في الهندسة الميكانيكية في العهد الإسلامي، وفي بعض نسخه خمسمائة رسم لصناعاته. وآلاته منقولة بدقة من رسومه، لذلك أعتبرت الرسوم الموجودة في نسخ الكتاب المختلفة زمناً ونسخاً رسوم الجزري، فكأنما رسمت من قبله مباشرة وذلك عند مؤرخي الفن. فأعطوها نفس الإعتبار والقوة في دراساتهم الفنية. كما إعتبروا رسومه ورسوم مهران بن منصور بن مهران أساساً لـ(مدرسة بغداد للفن). والأفضل تسميتها بـ(مدرسة دياربكر للتصوير) في العهد الإسلامي، لكون الفنانين من سكان هذا الإقليم الكُردي. فإبن رزاز كان من مدينة الجزيرة (جزيرة إبن عمر - جزيرا بوّتان). أما مهران فكان من سكان مدينة فارقين. وقد عاش الجزري في مدينتي حصن كيفا وآمد كـ(رئيس الأعمال) لثلاثة من الأمراء الأرتقيين لمدة ثلاثين سنة أو أكثر. لقد نُشرت في الغرب أبحاث عن كتاب الجزري وتراثه، وترجمت من قبل (دونالد هل) الى اللغة الإنكليزية. وقد نشر السيد ماجد عبدالله الشمس قسماً منه=

أياصوفيا)، وذلك دون أن يذكر في أية مدينة صنعها الأصطرلابي. وكان الجزري قد شاهدها. علماً بأنه لم يشر في كتابه الى أنه قد زار بلاد الشام أو العراق أو أي بلد آخر. ولهذا فمن المعتقد بأن

=كجزء أول بعنوان (مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية) وذلك سنة ١٩٧٧. ولا أدري هل نشر قسمه الثاني أم لا؟ لقد إعتمد المذكور على نسخة (توب قاپي) بإستنبول رقم (٣٤٧٢)، التي كتبها الرسام وتلميذ الجزري (محمد بن يوسف بن عثمان الحصكفي) الذي إنتهى من كتابتها سنة (٦٠٢هـ). وكتب في أوله : "قال الشيخ رئيس الأعمال بديع الزمان أبو العز بن إسماعيل الجزري... ". وحسب تحقيقنا فإن على هذه النسخة ختم الأمير الكُردي (شمس الدين) بن ضياء الدين الروشكي، من أجداد المؤرخ شرفخان البدليسي، الذي كان حياً سنة (٨٢٤هـ = ١٤٢١م)، مما يدل على أن المخطوطة كانت ضمن مخطوطات مكتبة أمراء بدليس، مثلما يوجد نفس الختم (الإهليلجي أو شبه البيضوي بطول ١٦ ملم) على مخطوطة (منافع الحيوان) لعبيد الله بن بختيشوع أحد أطباء الدولة الدوستكية، وقد ألفه للأمير نصرالدولة. وهي النسخة الأولى من الترجمة الفارسية والمصورة وهي نسخة (السلطان محمود عازان) من أحفاد هولاكو، الذي أمر بترجمة الكتاب الى الفارسية وتصويره من قبل عدد من الرسامين. وهذه النسخة موجودة الآن في مكتبة (مورگان) في نيويورك تحت الرقم .500 m ومن المحتمل جداً أن هاتين المخطوطتين الثمينتين كانتا من جملة آلاف الكتب التي كانت موجودة في مكتبة أمير بدليس عبدال خان بن ضياء الدين بن شرفخان المؤرخ، والتي نهبها الوالي العثماني الوحش ملك أحمد باشا سنة (١٠٦٥هـ = ١٦٥٤-١٦٥٥م)، أثناء الإطاحة بإماره عبدال الذي وصفه أوليا چلبي في (سياحتنامه، ج٤، ص١٠٢-١٠٣) بأنه كان عالماً في سبعمائة علم وفن كالفلسفة والكيمياء والسيمياء والطب = والتصوير والخط والزخرفة والغناء والميكانيك. فكان يصنع بنفسه الساعات اليومية والشهرية والسنوية وساعات الأبراج الكبيرة والمصوته، ويصنع ساعات صغيرة تدخل في الأصبع كخاتم. وقد شاهده أوليا چلبي وشاهد = صناعاته، وذكر أنه كان له ستة وسبعون مؤلفاً. علماً أن مؤلفاته تعتبر كلها مفقودة منذ هجوم ذلك الوالي القاسي على هذا الأمير العالم والعبقري.

وتجدر الإشارة الى أن السيد ماجد عبدالله موضع إنتقاد لعنوان كتابه الخالي من إسم الجزري وكتابه. إذ كان من الواجب أن يكون العنوان بإسم (كتاب الجامع بين العلم والعمل) لإبن رزاز، لأن الكتاب عبارة عن نشر قسم من كتاب الجزري. وهو (السيد ماجد عبدالله) موضع إنتقاد كذلك لتعصبه العربي رغم كونه صابئياً وليس عربياً. فقد جرّ الجزري الى جنوب العراق وعده عراقياً من أحفاد السومريين والبابليين. حيث قال في (ص٤٥) من مقدمته ما يلي: "لا شك أن عالمنا العراقي إبن الرزاز الجزري قد قام بكل ما يستطيع من مجهود لإخراج إبداعه في الميكانيك... فإنه لم يدر بخلده أن أجداده السومريين والبابليين هم أصحاب الحق عليه بالدرجة الأولى...". وهكذا جرّ الجزري من مدينة الجزيرة وآمد (دياربكر) أي من كُردستان الى العراق. هذا في القوت الذي لا يوجد فيه دليل على أن الجزري قد رأى العراق بعينه في يوم من الأيام. فأخذ ماجد الشمس منه جنسيته الكُردية أو الكُردستانية على الأقل. ولم أجد في كتابه إسم الكُرد أو كُردستان، مع إني نبهته الى ذلك في أكثر من لقاء. وهذا تحريف للتاريخ.

وقد كتب السيد عبدالله ياشن الجزري رسالة لي في ١٩٩٩، وهو الآن مدير متحف الجزيرة ومؤلف كتاب بالتركية في تاريخ الجزيرة ذكر فيه أن عمه المرحوم الملا عبدالرحيم الوسطاني (وهو من ذرية المفكر الكُردي أحمدي خانى حسب ما كتبه وكان طري الفكر) قد عثر في سنة ١٩٥٧ على شاهد قبر بن الرزاز في (مسجد النبي نوح)، القريب من قبة (مةلايى جزيري)، وذلك أمام الشيخ محمد قدري شيخ المسجد والكثيرين من سكان الجزيرة. وكان قد كُتب عليه "رئيس الأعمال بديع الزمان إسماعيل بن رزاز الجزري"، حسبما كتبه عبدالله ياشن. وأضاف أن شاهد القبر قد أدخل فيما بعد الى أحد الجدران مقلوباً. وقد طلبت منه إخراجه وتصويره لنا. من المحتمل أن الجزري قد أقام في أواخر حياته بالجزيرة وتوفي فيها، أو أنه توفي في مكان آخر كآمد أو حصن كيفا وأوصى بنقل جثمانه الى أقدس مكان في الجزيرة، وهو (مسجد النبي نوح) القريب من باب السور (دەرگەهێ طورى) أي (باب طورعبدين) في القسم الجنوبي من المدينة، وأنه توفي سنة (٦٠٢هـ = ١٢٠٥-١٢٠٦م)، أي السنة التي إنتهى فيها من تأليف كتابه.

لقد أشار الجزري الى أنه علّم الآخرين فنونه، أي كان له تلاميذ، وذلك في مقدمة كتابه (ورقة ١و٢ من نسخة أيا صوفيا)، لكنه لم يذكر أسماءهم. ومن المحتمل أن الملك الصالح محمود بن نور الدين بن قره أرسلان الذي حكم من سنة (٥٩٧هـ - ٦١٩هـ = ١٢٠٠ -١٢٢٢م) كان في مقدمة هؤلاء، والذي كان الجزري رئيس الأعمال عند والده=

الأصطرلابي صنع تلك الساعة في إحدى مدن إقليم دياربكر. وقال الجزري ما نصه: "صفة صورة الساعة ومعناه:

أما الظاهر فهو بيت مرتفع عن الأرض نحو قامتين والذي يجتمع منه ما يعلم من مضي الساعات هو باب في هذا البيت طول الباب نحواً من تسعة أشبار وعرضه نحواً من خمسة أشبار ونصف. وقد سُد هذا الباب بحجاب من الخشب أو صفر، وفي أعلاه على خط مستقيم عرضاً إثنا عشر باباً، لكل باب مصراعان مطبقان من أول النهار، ودونها موازياً لها إثني عشر باباً لكل باب مصراع واحد ملون بلون واحد في أول النهار، ودون الأبواب الثاني إفريز خارج عن وجه الحجاب بعرض الإصبع وعلى أول الإفريز هلال شبيه بالدينار متى تحرك الهلال على الإفريز سار مع وجوه الأبواب الثواني الى آخر الإفريز، وفي طرفي الحجاب خسفتان كأنهما محرابان فيهما طائران باسطان أجنحتهما ثابتتان على أرجلهما، وفيما بين المحرابين إثنى عشر جامة من زجاج مصفوفة بعضها الى بعض كأنهما نصف دائرة محدبها الى فوق، وأمام كل طائر قنديل ثابت على ركن زجاج، وفي كل قنديل مرآة مغلقة وفي أسفل الحجاب صور طبالين وبواقين وصناج، وفيما علا عن هذا الحجاب نصف دائرة محدبها الى فوق يجمع محيطها ستة بروج من إثنتي عشر برجاً، ودون ذلك فلك فيه شمس وهي قرص من ذهب، ودون ذلك فلك فيه قمر وهو قرص من زجاج.

وهذه الصورة وأما المعنى فإنه في أول النهار يتحرك الهلال على الإفريز ويسير سيراً منتظماً خفياً حتى يقطع بمسيره باباً ويستوي بين البابين الأول والثاني، فحينئذ ينفتح المصراعان من الباب الأول من الأبواب العليا ويخرج منه شخص على ما يختار الصانع ويقف بحاله كأنه مطلع، ثم ينقلب الباب الأول الذي قطعه الهلال بمسيره الى لون آخر، وينقض الطائران حتى يقاربا القنديلين ويطرحا من منقاريهما كرتين على المرآتين فيسمع صوتهما من بعيد، ويعود الطائران الى مقامهما وذلك عند إنقضاء (كل) ساعة. ولا يزال كذلك الى أن يبلغ الساعة السادسة، فهناك يطبل الطبالون ويبوّق البواقون ويلعب الصناج بالصنج هنية، وكذلك في الساعة التاسعة والثانية عشرة. وأما حال الأفلاك فإن مركز الشمس يكون في أول النهار على الدرجة التي فيها الشمس في ذلك اليوم على أفق المشرق، تريد الطلوع والدرجة النظيرة لها على أفق المغرب تريد الغروب. وكلما طلعت درجة من برج غابت نظيرتها، والشمس ترتفع الى نصف النهار، ثم تنخفض الى آخره ومركز الشمس حينئذ يريد

=وأخيه سكمان مدة خمس وعشرين سنة في حصن كيفا ثم في آمد، قبل أن يتولى محمود الحكم. وقد أشار الى كون الملك الصالح عالماً في الفنون والصناعات التي ضمنها كتابه. فقال أنه عندما كان يقوم بصنع بعض أعماله للملك الصالح، الذي أشار عليه بتأليف كتابه – يبدي له ملاحظات دقيقة بخصوصها. فمن المحتمل جداً أنه درس عليه. وقد أشار المؤرخون الى معرفة الملك الصالح بعلوم الفلاسفة، ومنهم إبن شداد في(الأعلاق الخطيرة، ورقة ١٢٧)، حيث قال أنه كان "متظاهراً بمذهب الفلاسفة". ولا أستبعد أن تكون للجزري رئيس أعمال الملك الصالح تأثيرات فنية أيضاً في البرج المدور المسمى (يدي قرداش)، وهو أول أو ثاني أضخم أبراج سور دياربكر الحالية، والذي وضع تصميمه (ترسيم) أي تصميم البرج الملك الصالح نفسه على ما هو مكتوب عليه، وتأثيرات كذلك في البرج المسمى (أولي بَدَن) المشابه لـ(يدي قرداش) في الرسوم الحيوانية المنقوشة عليه، المشيد من قبل نفس الملك سنة (٦٠٥هـ = ١٢٠٨م). وهما من أجمل أبراج سور دياربكر، وكان بنّاء الأول يحيى بن إبراهيم الصرفي والثاني إبراهيم بن جعفر.

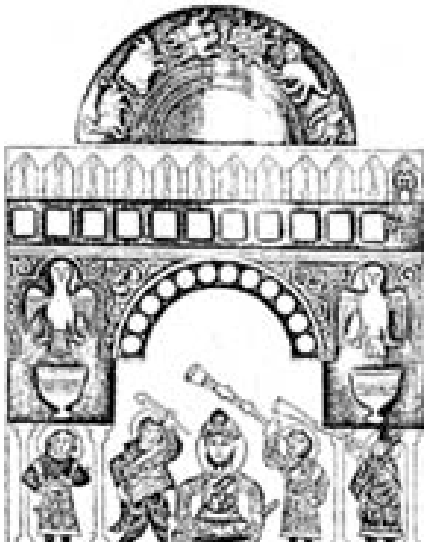

الساعة

الغروب والبروج الستة، التي كانت طالعة قد غربت والستة التي كانت غاربة قد طلعت وبحسب الزمان إن كان نهار السرطان، فتكون الشمس في غاية إرتفاعها. وإن كان نهار الجدي فتكون في غاية إنخفاضها. وأما حال الليل، فإن القمر يرى في برجه ودرجاته على ما هو عليه القمر في تلك الليلة. وإن كان هلالاً فهلالاً ذاهباً الى الإمتلاء، وإن كان ممتلياً فذاهباً الى المحاق. ثم يبدو في أول الليل في أول جامة من الجامات الزجاج ضوء كالعلامة ويتزايد حتى يكمل الضوء في جامة فيكون الماضي من الليل ساعة. ثم يبدو في الجامة ويتزايد حتى يكمل الضوء في جامة، فيكون الماضي من الليل ساعة. ثم يبدو في الجامة التي تليها حتى يكمل ست جامات مضيئة، فتخدم أرباب الملاهي في الليل كخدمتهم في النهار. وكذلك في الساعة التاسعة من الليل وفي الثانية عشرة وفي آخر الليل، عند تكامل الجامات بالضوء وهذه صورة ما وصفته واضحة.

الخلاصة أن الساعة كانت كانت بشكل غرفة إرتفاعها أكثر من ثلاثة أمتار في أعلاها دائرة البروج، وهي تدور وتتحرك ببطئ بحيث يختفي كل برج منها في نهاية الشهر، لأن لكل برج شهراً. وتحت دائرة البروج فلك الشمس وتحت هذا فلك القمر، ثم يأتي إثنا عشر باباً ذا مصراعين في صف أفقي تعرف بها ساعات النهار. إذ عند تمام كل ساعة ينفتح باب ويخرج منه رجل آلي علامة لتمام الساعة، ثم يتراجع الرجل وينغلق الباب ويتحرك الرجل نحو الباب الآخر داخل الساعة. وتحت هذا الصف من الأبواب صف ثان من الأبواب ذات مصراع واحد وبلون مغاير، وتحت هذه الأبواب إفريز يتحرك عليه هلال على شكل دينار. ثم تأتي إثنتا عشرة جامة، أي نوافذ مدورة مغطاة بالزجاج خاصة بمعرفة ساعات الليل، حيث يظهر الضوء في كل منها تدريجياً. وعندما يعم الضوء النافذة

(الجامه) تكمل الساعة. وعلى كل جانب من قوس الجامات خسفة (حنيّة) في كل منها طائر أمامه قنديل عليه مرآة، يقذف الطائران عند تمام كل ساعة كرتين معدنيتين من منقارهما على المرآة فيسمع الصوت من بعيد. في القسم الأسفل من واجهة الساعة خمسة موسيقيين، وعند تمام الساعة السادسة والساعة والثانية عشرة ينفخ البواقان في بوقيهما، ويضرب الصنّاجان على صنجيهما ويضرب الطبّال على طبله ويحدث لذلك صوت يسمع من بعيد. فحركة البروج والشمس والقمر هي وفق درجاتها الفلكية اليومية، وحركة الرجل الآلي والضوء في الجامات وقذف الطائرين الكرتين وقيام الموسيقيين بأعمالهم - كلها تتم بواسطة آلات يديرها الشمع المذاب داخل هذه الساعة الكبيرة، التي صنعها أحد نوابغ كُردستان، ألا وهو يوسف الأصطرلابي وفق حسابات ميكانيكية ورياضية وفلكية دقيقة جداً. ولا فرق في كل هذا بين الشمع المذاب أو الماء في مثل هذه الساعة .

والصورة موجودة في نسخة الحصكفي من كتاب إبن رزاز وغير موجودة في نسخة أياصوفيا، وذلك لأن العديد من صور الأخيرة قد سرقت من قبل المستشرقين. وقد قمت بتجديد هذه الصورة. وقد نقلها السيد ماجد عبدالله من كتاب (قصة الوقت) لجواد الساعاتي، ولكنها طبعت مقلوبة في كتاب السيد ماجد(مقدمة في علم الميكانيك في الحضارة الإسلامية، ص١٤٨).

ساعة فارقين حسبما وصفها بسري كونيار

ذكر المؤرخ الدياربكري بسري كونيار في كتابه (DIYARBAKIR TARIHI، ج٣، ص٣١٤) أنه كانت فوق الجامع الكبير بفارقين بناية ساعة الى سنة (١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م)، لكن الأرمن هدموها في تلك السنة وإدعوا أنها من آثارهم، ووصفها بما يلي:

«كانت فوق الجامع الكبير ساعة شمسية لها نوافذ، والمشهور أنها كانت بناية ذات إثنتي عشرة نافذة. وكانت البناية قد صنعت وفق ما كانت الشمس في الإعتدال، أي نقطة تساوي الليل والنهار. وكانت الشمس تضرب كل ساعة إحدى النوافذ، وبعد إثنتي عشرة ساعة كانت الشمس تغرب. ومن المؤسف أن الأرمن هدموا هذه البناية ذات القيمة في سنة (١٣٢٥هـ). وكان لهذه البناية بابان مفتوحان نحو الجامع ولم تكن فيها غرف، وكان في داخلها إبتداءً من الباب إفريز. وكان الجانب الشمالي مزيناً بنوافذ على شكل قناطر، وكانت النوافذ الإثنتي عشرة مفتوحة نحو الجامع. وكان في الطرف الشرقي صالون واسع مسقوف ومكانه اليوم مسطح، وكان طول الصالون (٣٠) خطوة كبيرة وعرضه (٣٠) خطوة(٧).

نلاحظ من وصف بسري كونيار ما يلي:

١- أن بسري كونيار لم ير بناية الساعة سالمة وإنما كتب وصفها حسب ما سمعه من الناس بدليل قوله "والمشهور أنها كانت بناية..."

(٧) ترجم العبارة التركية أخي الملا أحمد يوسف، الذي يجيد التركية والعربية والفارسية إضافة الى لغته الكُردية، كما ترجمها السيد آسوس هەردي أيضاً مشكوراً.

٢- كانت بناية الساعة عبارة عن غرفة واحدة أو ما يشبه غرفة، كأن تكون على شكل قبة دائرية جوفاء فيها نوافذ مفتوحة الى الجامع، بحيث أن أشعة الشمس كانت تنفذ من كل نافذة الى داخل الجامع، والجالس فيه يعلم بالساعة المعينة من تلك الأشعة، التي كانت تضرب بقعة معينة من الجامع. ومن مشاهدة الشمس من النافذة المعينة أيضاً، علماً أنه يوجد في الصورة المرقمة (٢٠٧) من الصور الثلاثة للجامع، التي أدرجها بسري كونيار في كتابه، بقايا غرفة مستطيلة غير دائرية فوق مكان ما من الجامع إهتم بها البنّاء من حيث الجمال المعماري، حيث زيّن جدارها (ولم يبق منها سوى القسم الأسفل بمقدار حوالي ٥-٦ صفوف من الأحجار بإفريز حجري بارز، وتحته إفريز آخر بارز من رؤوس الثيران، حيث نُحتت الأحجار على شكل رأس الثور. وأنا لا أستطيع أن أرجع هذا الطراز المعماري بالأصل الى أبعد من العهد الزردشتي(٨). وكانت الغرفة تطل على قسم من إفريز الأقواس الصامتة أي الخالية من النوافذ وهي على شكل قناطر. ويوجد حالياً في كل من الجانبين الشرقي والغربي من الباب الشمالي (أي في الجدار الشمالي للجامع) إفريز متكون من إثني عشر قوساً يرجح أن تكون من العهد الأرتقي، علماً أن صور بسري أُخذت حينما كان الجامع مهدماً، أي بعد تهديمه سنة (١٩٠٧) وقبل تعميره في سنة (١٩١٣) من قبل بنّاء ماردیني شوه الجامع وعمل أقواس الأبواب على طراز أقواس مداخل الكنائس المسيحية التي أخذت من الفن القوطي الذي شاع في أوروبا من القرن الرابع عشر الى أواسط القرن السادس عشر، إذ لم يراع الجانب الأثري والتاريخي له إلا قليلاً. وهذه هي صورة بسري كونيار. وتشبه أقواس الإفريز المذكور أقواس المدرسة المسعودية بدياربكر وجامع قزل تپه وكلاهما من العهد الأرتقي. ويحتمل أن الغرفة المذكورة كانت الساعة، سواء الساعة الدوستكية أو ساعة شمسية صنعت في العهد الأرتقي، حيث سقط الجانب القبلي من الجامع سنة (٥٤٩هـ = ١١٥٤م) أو في التي قبلها، كما هدم نجم ألبي أقساماً أخرى منه ثم جدد بناءها، وهناك في قبة الجامع كتابة بإسمه(٩).

(٨) كانت للثور قدسية لدى الحيثيين وكذلك لدى سكان كُردستان منذ خمسة آلاف سنة على ما ظهر من التنقيبات في (تل قالينج آغا) الواقع ضمن مدينة أربيل. وللثور قدسية كذلك في الديانة الزردشتية، حيث إتخذ من جملة رموز الإله (ميترا - مهر) كالحصان والأسد والغراب الأبلق وزهرة نيلوفر وزهرة الأرخوان، لذلك جسّم المعماريون الزردشتيون هذه الإعتقادات الدينية في أعمالهم العمرانية في المعابد وغيرها. ففي الصورة الموجودة في (ص١٥٨) من (إيران في عهد الساسانيين) لكريستنسن يشاهد حجران (تمثالان) لرأس الثور في معبد شابور الزردشتي. وقد إستمر هذا التقليد في العهد الإسلامي حتى اليوم، ووصل الى أوروبا. وفي السليمانية يسمي البنّاؤون وغيرهم هذا الحجر بإسم (بەردی سەرەگا) أي حجر رأس الثور. وهو حجر عريض من الأعلى وضيق من الأسفل يدخل في منتصف أقواس مداخل الدور والشبابيك. ومن هذا المنطلق الديني نُحت مدخل كهف في وادي قرية (بيتاسی) الواقعة في جنوب زاخو على شكل رأس الثور. وفي الكهف ثلاثة قبور زردشتية صورتها في ١٩٩٤/٩/٢٠. وتوجد الصورة في (ص٤٦) من كتابي (شوێنەوارەکانی نەوێ لە شاخی سورێن). وقد إكتشفنا مئات الرسوم والتماثيل لرأس الثور في الأماكن الدينية الزردشتية المكتشفة من قبلنا، والتي لم يتم إكتشافها سابقاً. يذكر أنه حتى ثلاثينات القرن العشرين كان المعماريون الكُرد يدخلون نماذج معمارية في أعمالهم تجسد أفكاراً زردشتية كمواقد النار الزردشتية، وذلك دون أن يعلموا معانيها، بل لأن هذا التقليد الزردشتي قد وصل إليهم جيلاً بعد جيل.

(٩) في الورقة (١٠٧) من الأعلاق الخطيرة لإبن شداد ذكر لإنهدام الجانب الجنوبي من الجامع وتجديد الجامع (بل معظمه من قبل الأمير الأرتقي نجم الدين ألبي).

جامع فارقين

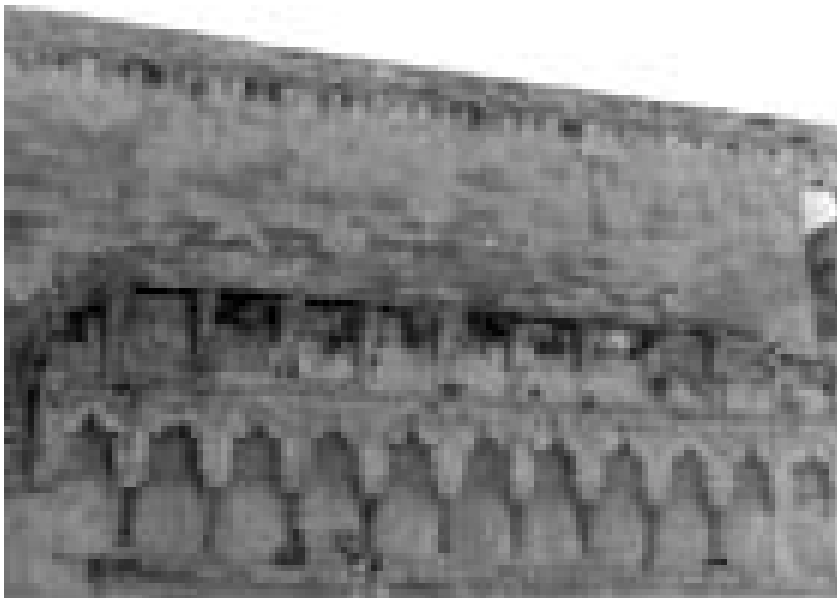

إفريز القناطر- من بسري كونيار

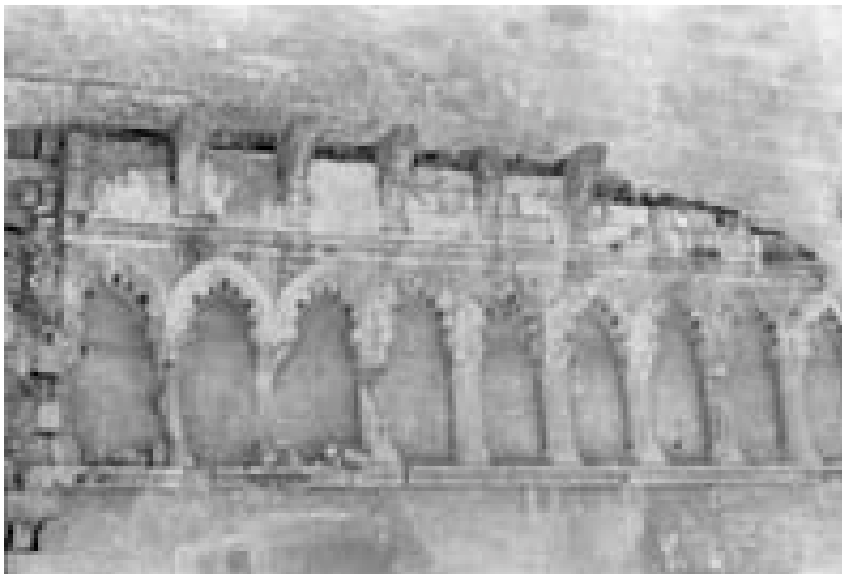

أفاريز جامع فارقين

وإن كانت الغرفة ساعة شمسية، فلا بد أن تكون مطلة على الجانب الجنوبي المواجه للشمس من الجامع. وإن كانت غير شمسية فالراجح أن تكون مطلة على الجدار الشمالي الذي فيه الباب الرئيسي. وقد قام البنّاء المارديني (لا رحمه الله) الذي يحتمل جداً أنه كان مسيحياً بتغيير حوالي ثلاثة أبواب أخرى للجامع. ويستبعد أن يكون طول الغرفة بقدر عرض الجامع البالغ (٣٠ أو ٢٥ م)، وإن كان في جدار غرفة الساعة شبابيك على شكل قناطر، فهي مشابهة لأقواس (قناطر) الإفريز الذي في الجدار الشمالي من الجامع، والذي يرجح أن تكون من العهد الأرتقي، لكونها مشابهة لتلك الموجودة في المدرسة السعودية والمدرسة الزنجيرية بدياربكر من قوس المدخل لكل منهما وكلاهما من العهد الأرتقي(١٠).

وقد قمت بتصوير الإفريز في آب ١٩٧٧ أثناء دراستي لآثار مدينة فارقين. ولايستبعد أن تكون ساعة الدولة الدوستكية قد تهدمت سنة (٥٤٨هـ أو ٥٤٩هـ)، ثم تم صناعة ساعة أخرى أثناء تعمير الجامع إستخدم فيها نفس الطراز من القناطر الباقية حالياً، وذلك بأمر من نجم الدين ألبي وكانت باقية الى سنة ١٩٠٧ أو أن ما تبقى من الغرفة كان غرفة الساعة الدوستكية.

٣- أن ما ورد من ذكر الصالون وأدرج في موضوع الساعة لا علاقة له بالساعة مطلقاً، وليس هذا الصالون (الرواق) الكبير فوق الجامع، بل كان مشيداً على الأرض في الطرف الشرقي من الجامع. ويحتمل أنها عبارة مقحمة ولعل قبلها عبارات محذوفة أي متروكة أثناء طبع الكتاب يستفاد منها

(١٠) قال شوكت بيسان أوغلو في ص٢٢٤ من كتابه DIYARBAKIR TARIHI أن في جامع علاءالدين في (قونيه) إفريز مشابه لإفريز جامع فارقين.

أن بناية الساعة كانت على القسم الشرقي من الجامع مقابل ذلك الرواق، أي أن جدارها الشرقي كان يقابل الرواق إن كانت العبارة في محلها.

ومن حيث أن بسري كونيار وهو أفضل مؤرخي دياربكر في القرن العشرين، وكتابه أفضل وأوسع من مؤلفات غيره في موضوعه – فإنه لم ير غرفة الساعة سالمة، فلا يمكن القول إذن بأن معلوماته عن الساعة دقيقة وشاملة ١٠٠٪. ولكن الأمل ليس معدوماً في الحصول على معلومات عنها في مؤلفات أخرى أقدم، وكذلك على صور. هذا مع العلم أن ناصري خسرو عندما قدم الى فارقين سنة (١٠٤٦م) أعجب بجامعها وكتب له وصفاً مسهباً في (سفرنامه)، على ما أشار إليه الشخص الذي إختصر (سفرنامه)، وأشار مختصر الكتاب الى أنه حذف ذلك الوصف، لكنه كان البنّاء المارديني عديم الذوق، حيث أبقى من الوصف ما يتعلق بمراحيض الجامع الأربعين. والنسخة المختصرة هي التي ترجمها يحيى الخشاب الى العربية وطبعها، فمن المحتمل أن يكون ناصر خسر وصف ساعة الجامع ويحتمل الحصول على ذلك في نسخة مخطوطة غير مختصرة منه في مكان ما. أما شوكت بيسان أوغلو وكذلك سليمان سافجي مؤلف (SILVA TARIHI) فلم يشيرا الى الساعة.

أخيراً، إن ساعة بنكام، التي كرر الفارقي ذكرها ثلاث مرات وقال "أن نصرالدولة غرم من ماله" أي صرف على صنعها مبلغاً كبيراً، لم تكن ساعة شمسية قليلة التكاليف، وإنما ساعة مشابهة لساعة يوسف الإسطرلابي إن لم تكن هي نفسها ومشابهة للساعات التي أشرنا إليها. وإن كانت هي التي بقي بناؤها حتى سنة ١٩٠٧ قائماً، فقد كانت معطلة عن العمل، كما يحتمل بأن مبناها لم يكن سالماً تماماً. ففسرها الناس لذلك خطأً بكونها ساعة شمسية، ولم يعلموا بحقيقتها. وإن كانت قد تهدمت سنة (٥٤٨هـ أو ٥٤٩هـ) ثم صنعت ساعة شمسية أخرى أثناء تعمير الجامع من قبل نجم الدين ألبي، فإنها غيرها بلا شك. والأرجح أنها كانت تطل على الساحة الشمالية للجامع حيث الباب الرئيسي كان في الجدار الشمالي منه.

ولا بأس ونحن بصدد هذه الساعة أن نذكر أنه كانت في كُردستان ساعة أقدم بكثير من العهد الدوستكي، ولكنها كانت ساعة شمسية (مزولة) حجرية. وهي موجودة الان بين آثار جبل (نمرود) الغربي الواقع غرب الفرات في ولاية (أديَمان)، وهي من حضارة دولة (كوماگن) الإغريقية الصغيرة هناك (٦٩ ق.م – ٧٢ ب.م)، التي خلفت آثاراً كبيرة وهذه صورتها(١١).

نشير كذلك الى ساعة (بنكام) مائية قديمة ومهمة ذات علاقة بتاريخ كُردستان، وهي ساعة قصر جنزك (شيز – تخت سليمان) (تكاب) الحالية في أقصي شرق منطقة موكري من كُردستان إيران، حيث كان هناك واحد من المعابد الثلاثة الكبرى للدولة الساسانية، وهو معبد (گوشَنْسْبْ) الزردشتي الملكي. لقد عمل الملك الساساني (كسرى) تلك الساعة في قصره هناك، وقد ذكرتها مصادر شرقية وغربية وعرفت بـ(تخت ديس). صنعت الساعة في سقف مقبب شبيه بالسماء تتحرك فيه البروج

(١١) الصورة مأخوذة من DOGHO ANADOLU BOLGESI (6). TURIZM VE TANITMA BAKANLIGI. hazairlayen ve Basan: TICARET MATBATICILIK. T.A.S IZMIR 1968.

الفلكية والكواكب السبعة السيارة والقمر مع حركة السماء فوق الأرض. وكان ينزل من الساعة مطر رذاذ وتحدث آلاتها صوتاً كالرعد في ساعات معينة. وكان في الساعة صورة كسرى مع رجاله المقربين. وكان طول الساعة تسعين متراً وعرضها خمسة وستون وإرتفاعها سبعة أمتار ونصف، حسب أوصاف الثعالبي. وفي سنة (٦٢٤م) خرّب هرقل القصر بما فيه الساعة. والتفاصيل في (إيران في عهد الساسانيين، ص ٤٤٩- ٤٥٠) لكريستنسن. وقد خصص عالم الآثار الكبير هرتسفيلد بحثاً عن هذه الساعة.

ولعل أقدم ساعة أو تقويم في كُردستان كانت الحجر البيضوي المحزز بأثني عشر حزّاً وخطاً، والموجودة في الخزانة رقم (٢) من المتحف العراقي ببغداد. وقد عثر عليها في كهف شانَدر القريب من الزاب الكبير في منطقة بارزان في محافظة أربيل، وذلك أثناء التنقيبات من قبل العالم الأمريكي (سوليكي). وتاريخ السكنى في الكهف إبتدأ منذ ستين أو سبعين ألف سنة الى أحدث العهود(١٢).

لقد إعتبر عالم الآثار الأستاذ الدكتور بهنام أبو الصوف ذلك الحجر البيضوي التقويم القمري بدون تردد، وقال إن هذا التقويم قد ألقى سطوته على خياله(١٣). من المحتمل جداً أن سكان كُردستان في العصر الحجري الحديث، وخاصة سكان (چَرمو) الواقعة في منطقة السليمانية الذين عرفوا الزراعة قبل غيرهم من سكان العالم وذلك منذ تسعة آلاف سنة، عرفوا قياس الزمن والتقويم قبل غيرهم ايضاً وذلك بواسطة الدورة الزراعية. فقد قال كبير علماء الآثار العراقيين المرحوم طه باقر في موضوع (چرمو): لعل فكرة قياس الزمن والتقويم، ولاسيما التقويم الشمسي قد إستوحاها الإنسان من الدورة الزراعية. إذ يمكن قياس طول السنة الشمسية من وقت البذار الى بذار اخر، أو من حصاد الى حصاد آخر. ولعل إنسان ذلك العصر (أي العصر الحجري الحديث) إستعان في ضبط مثل هذه الدورات والمواسم وتعاقبها ومواعيدها بإقترانها، بطلوع بعض النجوم والكواكب(١٤).

التجارة

لقد حصل تقدم بارز في الحركة التجارية في كُردستان الوسطى في عهد الدولة الدوستكية وذلك للأسباب التالية:

١- إهتمام الدولة ببناء علاقات الصداقة مع دول وإمارات المنطقة والإبتعاد عن الدخول في منازعات مع جاراتها، وإتخاذها السلم والصداقة مع شعوب المنطقة الإسلامية والمسيحية أمراً إستراتيجياً لسياستها الخارجية، كما مر التفصيل في أوائل فصل العلاقات الخارجية وفي موضوع سياسة

(١٢) بخصوص هذا الحجر راجع الدكتور، فرج البصمچي، كنوز المتحف العراقي، ص١٢٧.
(١٣) راجع، ص٦٨ من (الدكتور بهنام أبو الصوف) تأليف حميد المطبعي، بغداد ١٩٩٥.
(١٤) طه باقر، مقمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص١٩٩.

نصرالدولة السلمية في الجزء الأول. وقد أدت هذه العلاقات الى تشجيع ونمو التجارة، وأصبح بإمكان التجار الأجانب دخول البلاد الدوستكية دون أية عراقيل من الدولة ودون خوف على أموالهم من السلب والنهب.

٢- إستتباب الأمن والإستقرار في البلاد وجعل الطرق التجارية التي تربطها بالبلاد الخارجية آمنة من العابثين وقطاع الطرق. فكان التجار لايخافون أثناء تنقلهم في البلاد الدوستكية أو مرورهم بها من أعمال السلب والنهب. بينما كانوا كثيراً ما يتعرضون الى السلب والنهب في البلدان التي لاتنعم بالأمن والإستقرار، وذلك من قطاع الطرق وحتى من قبل جنود الدولة نفسها أحياناً. ففي أثناء ضعف وإنحطاط الدولة العباسية مثلاً (ربما طمع الوزير أو القائد العسكري في أرزاق الجنود، فكان الجنود يخرجون بسبب ذلك ويتعرضون للمارة ويسلبونهم أموالهم وأمتعهتهم ويسطون على قوافل التجار)(١).

ويمكن أن نلمس مدى إهتمام الدولة الدوستكية بحماية الطرق التجارية من اللصوص وقطاع الطرق والمفسدين مما أمر نصرالدولة بقتل أحد رؤساء الكُرد في دولته، حينما إعترف بأنه قتل أثناء كونه قاطع طريق في عنفوان شبابه تاجراً، بعد أن سلب منه ما معه من أموال(٢). فإقتص منه نصرالدولة لذلك التاجر المنكوب المجهول بعد مرور سنوات طويلة على قتله. كما نستدل على ذلك الإهتمام من شهادة أبي العلاء المعري، الذي مر بالبلاد الدوستكية أثناء رجوعه من بغداد وذلك حوالي سنة (٣٩٩هـ)، حيث ذكر بأنه سلك طريق الموصل وفارقين. وقد أعطانا المعري بعبارة وجيزة وصفاً دقيقاً لمدى تمتع البلاد بالأمن والسلام، وإليك نص كلام المعري: "سلكت طريق الموصل وميافارقين... ولما نزلنا بالحسنية تساوى حامل المال والرمال وقل بلاء الغادي أين قال والرائح أين عرس وبات، فلم نزل كذلك حتى بلغنا آمد. ثم عادت السبيل الى غوائلها وسدكت الرفاق بمخاوفها..."(٣).

إن قول المعري هذا يقترن بصحة ما قاله بعض المؤرخين من أن البلاد الدوستكية كانت من أكثر البلدان أمناً وإستقراراً وكانت أطيبها(٤). وإن أي بلد آخر من بلدان الشرق الأوسط آنذاك لم يبلغ مبلغ الدولة الدوستكية في توفير الحياة الآمنة المستقرة. ولاشك بأن إستتباب الأمن عامل مهم لتنشيط الحركة التجارية ودفعها الى الأمام.

٣- عدم فرض الضرائب الكثيرة أو الثقيلة على التجارة والسوق من قبل الدولة الدوستكية. إذ لم

(١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج٤، ص١٩٠.

(٢) محمد بن أحمد المحلي، المستطرف، ج٢، ص١٠٦: مادة الحجل (كهو) ذكر ذلك في قصة لطيفة ذكرناها في الجزء الأول ص٢٥٩-٢٦٠ تحت عنوان (الحجل يشهد).

(٣) محمد بن أحمد المحلي، المستطرف، ج٢، ص١٠٦: مادة الحجل (كهو) ذكر ذلك في قصة لطيفة ذكرناها في الجزء الأول ص٢٥٩-٢٦٠ تحت عنوان (الحجل يشهد).

(٤) إبن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٨٧.

نجد في المصادر المختلفة ما يشير الى فرض ضرائب من هذا النوع، بل ذكر الفارقي بأن نصرالدولة ألغى الكثير من الضرائب التي كانت قد فرضت على سكان مدينة دياربكر من قبل كل من عبدالبر وإبن دمنة(٥).

أما التجارة في كُردستان الوسطى في العهد الحمداني، فقد عانت من فرض الضرائب الكثيرة، إضافة الى عدم تورع الحمدانيين عن مصادرة أموال التجار كما هو معلوم من سياستهم، حتى إن سيف الدولة (ولعله من أحسن الحمدانيين سيرة) فرض ضرائب كثيرة ومختلفة على مدينتي الرقة والرافقة، وصادر سكانهما المرة تلو الأخرى بدرجة أدت الى إنحطاط المدينتين وتأخرهما من الناحيتين التجارية والإقتصادية عامة. كما إن مدينة رأس العين تأخرت كثيراً وإنحط شأنها بسبب ظلم الحمدانيين(٦).

وهناك أمثلة عديدة لا مجال لذكرها هنا. وكيف يمكن أن لاتتأخر التجارة وتنحط إذا ما دُمرت مدن عديدة في كُردستان والمناطق المتاخمة من البلاد البيرنطية مثل بلدة (تل فافان) الكُردية، التي أحرقها حسين بن حمدان وقتل سكانها بدون ذنب وهو ينهزم أمام قوات الخليفة العباسي(٧).

أما التجارة في كُردستان الوسطى خلال فترة السيطرة البويهية القصيرة، فقد ظلت تعاني من أسباب التأخر كما في السابق، منها الضرائب الثقيلة ولعل الضرائب الجديدة زادت عن الضرائب الحمدانية. فقد زادت الدولة البويهية من مقدار الضرائب على كُردستان وغيرها من البلاد الخاضعة لها وذلك: "أن عضدالدولة أحدث جبايات لم تكن ورسوم معاملات لم تعهد... وقدر على أسواق الدواب والحمير والجمال عما يباع فيها من جميع ذلك، وفعل في ضرائب الأمتعة الصادرة والواردة ما زاد فيه عن الرسوم القديمة"(٨).

٤- تشجيع التجار وتقديرهم مما يمكن أن نلاحظ هذا الإهتمام من قبل الدولة الدوستكية بسرور نصرالدولة الفائق لسماعه أن التاجر (إبن بهات) ربح في يوم واحد من الخام (٥٠٠) دينار بيزنطي. فأحضره نصراالدولة الى مجلسه وأبدى سروره وتقديره، فأهداه التاجر مبلغ الربح، فلم يتسلمه منه وأقسم كل منهما بأنه لايأخذ المبلغ. فإشترى به التاجر قرية (بني نوح) وجعلها وقفاً على حراس حصون آكل والجبابرة واليماني(٩). وقال له نصرالدولة: "إني ما أحضرتك لآخذه منك ولكن أردت أن أعلم صحة الحديث وإن في بلدي من كسب في يوم واحد خمسمائة دينار!".أما

(٥) الفارقي، ص١٢٢.

(٦) إبن حوقل، ص٢٠٠، ٢٠٣.

(٧) إبن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠، حوادث سنة ٣٣٠هـ.

(٨) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص٧١.

(٩) ورد في الفارقي، ص١٦٧ (الجاترة) بينما ورد إسم هذا الحصن في بعض نسخ الفارقي الأخرى وفي مخطوطة الأعلاق الخطيرة لإبن شداد ورقة ٩٢ بإسم (الجبابرة)، وفي فتوح الشام، ج٢، ص١٦٥ بإسم (الجبابرة) أيضاً، وذلك عند البحث عن الفتح الإسلامي لمنطقة دياربكر. وكانت هذه القلاع تقع في شمال دياربكر بالقرب من منبع دجلة قرب الحدود البيزنطية. وهناك ملاحظة أخرى وهي أن الفارقي فصل بين (إبن البهات) وأبي بكر محمد بن جري، بينما إعتبرهما إبن شداد شخصاً واحداً، وأورد "إبن الشهاب" بدلاً من "إبن البهات" وهو خطأ.

نظام الدين فكان يتفقد أحوال الناس ويسأل عن أحوال الحاضرين في المدينة وأحوال الغائبين أيضاً[١٠] وبضمنهم التجار وأهل السوق. وقد شبه الفارقي في (ص٢٢١) أيام أبي علي البلخي بأيام نظام الدين من فعل الخير وأمن الناس على أموالهم وإحترامهم وإكرامهم. ولهذه الأسباب إزدهرت التجارة في ذلك الجزء من كُردستان، وأصبحت الأسواق تعج بالبضائع والأموال التجارية وإمتلأت مخازن التجار وإستغنى الناس وتظاهروا بالثروة. فقد خلف التاجر والسمسار أبو بكر بن جري في مخازنه بعد وفاته على سبيل المثال ما قيمته (٨٠) ألف دينار من الأمتعة والأقمشة. وكان المذكور تاجراً غنياً، وقد صادره نصرالدولة وأخذ منه (٤٠٠)ألف دينار. وكان هذا قد حفر قناة ماء الى فارقين على حسابه الخاص، كلفته خمسين ألف دينار[١١]، أو أكثر من هذا المبلغ بكثير. علماً أن الدينار آنذاك كان يعادل في قيمته الشرائية أكثر من خمسين ديناراً في وقتنا الحاضر. ويمكن أن نلاحظ أيضاً مما تقدم مما قاله الفارقي: "إنغمرت ميافارقين أيام نصرالدولة وقصدها الناس والتجار وجماعة من كل الأطراف"[١٢].

لاشك أن حجم الصادرات الكُردية الى الخارج قد إزداد في العصر الدوستكي، كما إزداد حجم البضائع الأجنبية الواردة الى كُردستان للإستهلاك المحلي أو للمرور بها الى بلد آخر، وإن تجاراً قدموا من الخارج للإقامة فيها لمزاولة أعمالهم التجارية في هذا البلد الأمين.

أما أهم المدن التجارية، فكانت مدينة دياربكر (آمد)، وكانت تلتقي عندها عدة طرق تجارية. وكان مما تستقبله هذه المدينة من التجارة البيزنطية ثياب الصوف والكتان الرومية على عمل الصقلي[١٣]، أي المصنوعة على الطراز المتداول في جزيرة صقلية، والتي كان التجار يوصلونها بعد ذلك الى العراق وغيره. ويمكن لنا أن نستنتج مدى حجم التبادل التجاري بين كُردستان والبلاد البيزنطية من تداول الدينار الأرمانوسي البيزنطي بكثرة في المعاملات التجارية في العهد الدوستكي، كما بينّا في موضوع النظام المالي.

لقد تقدمت مدينة دياربكر تجارياً وتوسعت أسواقها في العهد الدوستكي الى أكثر من ستين سوقاً مختلفاً على ما ذكره الدكتور أديب معوض[١٤].أما مدينة الجزيرة، فكانت مركزاً تجارياً هاماً واقعاً على طريق دجلة المائي، سواء في العهد الدوستكي أو في العهود الأخرى. وقد أشار الى موقعها التجاري العديد من المؤلفين القدامى والمحدثين منهم إبن حوقل، الذي ذكر أن: "بها تجارة دائمة لو

(١٠) الفارقي، ص١٩٩.وإبن شداد، ورقة ٩١-٩٢.

(١١) الفارقي، ص١٦٥- ١٦٨. سبب مصادرة هذا التاجر كما ذكره هو الإتهام بالتواطيء مع ملك السناسنة وكانت بينهما صداقة، ولما سُجن تم تفتيش داره فوجد فيها أسلحة كثيرة، فصودرت وأعتقل وتوفي في السجن. وصرح الفارقي بأن التهمة كات باطلة لفقها بعض حساده. راجع أيضاً مخطوطة الأعلاق الخطيرة، ورقة ٩١، نسخة مصورة في مكتبتي مصورة على نسخة مكتبة بودليان بأكسفورد.

(١٢) الفارقي، ص١٦٦.

(١٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٥.

(١٤) الدكتور أديب معوض، الأكراد بين الأمس واليوم، ص٤٣.

تركها السلاطين وربح مطرد لو لم يجر فيها حكم الشياطين والخوارج"(١٥).

وأضاف بأنها: "فرضة (أي محطة تجارية) لأرمينيا وبلاد الروم ونواحي ميافارقين وأرزن وتصل منها المراكب مشحونة بالتجارة كالعسل والسمن والمنّ والجبن والجور واللوز والبندق والزبيب والتين الى غير ذلك من الأنواع"(١٦). وقد أشاد إبن حوقل بأهمية الجزيرة من الناحية التجارية بإعتبارها محطةً تجارية تستقبل التجارة الأرمنية والبيزنطية وتجارة إقليم دياربكر. كما أشاد أيضاً بعمرانها وكثرة سكانها وفلاحيها والأراضي الخصبة الواقعة في شرقيها وغربيها، إضافة الى ثروتها الحيوانية وفضلها على أرزن وفارقين من الناحية المذكورة(١٧).

أما المقدسي فقد عدد هو الآخر التجارات القادمة من الجزيرة الى العراق وبضمنها الخيل الجياد(١٨). وكان يصدر من منطقة الجزيرة الملح (١٩) وأحجار الرحى (الطاحون) من النوع البازلتي الأسود. وكانت قيمة الحجر الواحد منها في العراق خمسين ديناراً أو أكثر(٢٠). علماً أن أحجار الرحى كانت تشكل مادة تجارية مربحة كانت ترد دائماً من الجزيرة بواسطة الأكلاك الى الموصل والعراق حتى فترة الحرب العالمية الأولى. وما زالت مجموعات من أحجار الرحى الجاهزة للتصدير تشاهد متروكة على شواطيء دجلة فوق الجزيرة، حيث تركت هناك عندما أقفل الطريق بسبب تأسيس الحكومة العراقية.

أما مدينة زاخو (الحسنية)، فكانت تصدر الجبن والقبج والجواجيق والشواريز والفواكه المقددة،

(١٥) إبن حوقل، ص٢٠٢. وردت فيه العبارة (وربح مضطرب) وهي خاطئة والصحيح (وربح مطرد) كما صححته.

(١٦) إبن حوقل، ص٢٠٢، ٢٠٣. إشتهرت البلاد الكُردية منذ زمن بعيد بصناعة الجبن، وكانت ولاتزال تصدر كميات كبيرة منه سنوياً الى البلدان المجاورة غير الكُردية. وكان الجبن الكُردي مشهوراً بجودته، ولهذا كان يفضل على غيره في أسواق العراق وسوريا وغيرهما. وأجود الجبن هو الذي يصنع في المناطق الباردة وخاصة مناطق الزوزان. وقد عرف قديماً جبن كوردي بإسم (الجبن الزوماني) أو (الجبن الزمي). قال ياقوت الحموي في معجم البلدان، ج٣، ص١٥٦ يُنسب الى طائفة من الكرد تعرف بزومان، ولكنه قال أيضاً: ولعله ينسب الى (زوم) من نواحي أرمينية مما يلي الموصل. والنسبة الى زوم أرجح عندي، لأن المقصود بالجبن الزوماني أو الزومي، هو الذي تصنعه القبائل الكُردية في زمومها في مناطق الزوزان الواقعة جنوب بحيرة وان الى حدود زاخو وعمادية... شمال الموصل. علماً أن لفظ (زوم) يطلقه الكُرد في كُردستان تركيا (وبضمنها ما نسميه في كتابنا هذا كُردستان الوسطى) وكذلك في بهدينان على المضارب المعينة للقبائل الكُردية في مناطق الزوزان أيام الصيف. فالزوم كان لفظاً مستعملاً منذ قرون، فمثلاً أورد ذكره إبن خرداذبه في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وذكره في القرن التالي أيضاً كل من الأصطخري والهمداني وإبن حوقل مثلاً، وذلك عند ذكرهم لكُرد إقليم فارس ولورستان الكبرى. فذكروا من زموم الكُرد هناك: زوم (زم) الكاريان وزوم البازنجان وزوم جيلويه وزوم السوران... وكان كل زوم منها عبارة عن منطقة واسعة تشمل قرى ومدناً، فمدلوله في لورستان كان يختلف سعةً عن مدلول الزوم المحدد في كُردستان الشمالية وبهدينان. راجع إبن خرداذبه، المسالك والممالك، ص٤٧. الإصطخري، مسالك الممالك، ص١١٣، ١٤٤. إبن حوقل، ص٢٤٠. الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ص٢٠٣.

(١٧) إبن حوقل، ص٢٠٣.

(١٨) المقدسي، ص١٣٩. راجع أيضاً الدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية، ج١، ص٢٤٢.

(١٩) قدامة بن جعفر، كتاب الخرج، ص٢٤٥

(٢٠) إبن حوقل، ص٢٠١.

والزبيب(٢١). أما (معلثايا) فكانت تصدر الألبان والفحم والأعناب والفواكه الرطبة والقنّب(٢٢). وأما مدينة بدليس ذات الممر الإستراتيجي، فقد أشاد بموقعها التجاري أكثر من واحد من المؤرخين، لأنها كانت إحدى المحطات الرئيسية التي تمر بها القوافل التجارية بين أرمينيا وبلاد الگُرج من جهة، وبلاد ما بين النهرين والشام من جهة أخرى(٢٣).

كما تربط بدليس بين بلاد الشام وأذربيجان والقفقاس، وكانت مركزاً لبعض الصناعات التي كانت تصدرها الى الخارج كالسجاد والجلود والصموغ(٢٤). ولعلها كانت أكبر مركز لتصدير العسل. فقد أبدى الرحالة الإيراني ناصر خسرو، الذي وصل إليها في العهد الدوستكي إستغرابه من كثرة عسلها ورخص أسعاره. وقال إشترينا مائة مَن بدينار واحد، وإن بها من يجني في السنة ثلاثمائة الى أربعمائة جرة عسل(٢٥).

أما مدينة نصيبين فكانت أيضاً مدينة تجارية لوقوعها على أطول طريق تجاري بري، كان يربط بين الشرق والغرب في القرون الوسطى. كما إنها تقع اليوم على خط الترانزيت الدولي. أما العاصمة فارقين فقد أصبحت في العهد الدوستكي مركزاً تجارياً مهماً بحكم كونها عاصمة ووقوعها على طريق بدليس - دياربكر وطريق دياربكر - شرقي دجلة. فإزدهرت فيها التجارة توسعت الى درجة أنها جلبت أنظار التجار في الخارج، فقدم إليها بعض التجار وسكنوها مزاولين أعمالهم التجارية فيها، كما يظهر من كلام الفارقي السابق. لقد توسعت الأعمال في هذه المدينة ونشأت فيها طبقة من أغنياء التجار وغيرهم كإبن جري وإبن البهات وأبي الحسن أحمد بن وصيف، وكان الأخير من كبار أصحاب المحلات التجارية في سوق القماش (البز) بفارقين، ومثل القاضي أبي الحسن الآمدي ومحمد بن العبيد بن المحور(٢٦).

(٢١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٥. (القبج): هو الحجل وبالكُردية (كەو) وهو طائر جميل مشهور يكثر في المناطق الجبلية في كُردستان ولحمه لذيذ وصوته شجي. يربيه الكُرد لجماله وطيب صوته وإستخدامه في صيد الحجل البري، وربما تبلغ قيمة الواحد منه أكثر من ألفي دينار حالياً. ولا فرق بين القبج والحجل على عكس ما في بعض الكتب. راجع لسان العرب، إبن منظور، مادة قبج ومادة حجل. وتذكرة داود الأنطاكي، مادة حجل. (الجواجيق): جمع جاجق - جاجك)، والجاجق كلمة كوردية معناها باللهجة السورانية علك (علك مائي) يجمعه الكُرد من صمغ أشجار الحبة الخضراء (كەزوان) ويبيعون منه كميات غير قليلة سنوياً. ولكن النوع الجيد والقليل هو ما يصنع من نبات الكعوب (كەنگر-كەرەنگ) ونبات آخر، وكلا النباتين ساقيهما معظمتان يخرج منهما ماء حليبي يتجمد فيكون علكاً. ويحتمل أن يكون جواجيق جمع جاجق معرب (ژاژاك) وهو من مشتقات الحليب، حيث يجفف اللبن (دۆ) وتخلط به بعض النباتات مع فتات الجبن. (الشواريز): جمع شيراز وهو اللبن الرائب (ماست) المستخرج من مائه كما في لسان العرب والمنجد مادة (شرز). ويسميه الكُرد (شيريز، والراجح أن شيراز تعريب (شيريز - شيريش).

(٢٢) الدكتور حميد عبدالمجيد الكبيسي، أسواق بغدا الى بداية العهد البويهي، ص١٩١. تمثل معلثايا (مەلتا) دهوك الحالية، أي كانت تلك المناطق تصدر من منطقة دهوك بسهولها وجبالها. والقنب كما في المنجد نبات هندي الأصل ينتج لفيفاً متيناً صالحاً لصنع الحبال والخيوط. ويسمى بالكُردية (كندر).

(٢٣) دائرة المعارف الإسلامية، ج٣، ص٤٦٢.

(٢٤) نفس المصدر: مادة بدليس.

(٢٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٧.

(٢٦) الفارقي، ص٩٩، ١٠٠، ١٨٢.

نظام السمسرة

كان نظام السمسرة موجوداً في الدولة الدوستكية كعامل منشط للحركة التجارية في كُردستان الوسطى. وكانت التجارة في العصر العباسي، بما فيه العصر الدوستكي، تسير وفق تنظيمات مالية معينة، ومن أهم الأنظمة التي إستخدمت في ذلك الوقت نظام السمسرة أو الدلالة، الذي كان السماسرة يحصلون من عملهم على أجور محترمة(٢٧).

وكان السمسار(٢٨)، أي الدلال والوسيط الذي يتوسط بين البائع والمشتري على إنجاز البيع. وقد أعتبرت السمسرة من الوظائف المهمة لتنشيط التجارة وإهتمت الدول والحكومات بتنظيمها وإصدار القوانين بشأنها. وقد جرت العادة أن يتخصص الدلالون كل في نوع معين من السلع، فعُرف دلال الأملاك ودلال الرقيق ودلال الأقمشة(٢٩).

إن نظام السمسرة كان قد أنشأته الدولة الدوستكية في بلادها كجزء من إهتمامها بالتجارة، بإعتبارها إحدى الدول المتقدمة في عصرها. لأن الفارقي قد ذكر أن كلاً من التاجرين أبي بكر بن جري وإبن البهات كانا سمسارين، وكانا في نفس القت تاجرين. ويمكن أن نستنتج من هذا أن الدولة الدوستكية قد أدخلت السمسرة في أيدي أشخاص من أصحاب المروءة والأخلاق، وهم أشخاص معروفون بالعدل والإلتزام بالحق، إضافة الى كونهم متعلمين ومطلعين على قسط غير قليل من الشريعة الإسلامية، ولاسيما ما يتعلق بالمعاملات والأحوال الشخصية والقضاء الجنائي . هذا بالإضافة الى معرفتهم بمعظم سكان المدينة وبأخلاقهم وغيرها من واجبات وإختصاصات العدول. راجع التفاصيل في موضوع العدالة.

أما السمسار الآخر، فهو أبو بكر محمد بن جري، والذي كان رجلاً ذا مروءة وأخلاق وورع ومحباً لأبناء بلده وخير بلاده. وخير مثال على ذلك المشروع الخيري لقناة الماء التي حفرها وأجرى الماء بها الى العاصمة فارقين، والذي كلفه أكثر من خمسين ألف دينار أي ما يقدر بمليونين ونصف مليون دينار بقوة الدينار العراقي الشرائي الحالية. ولكن مع هذا فإنه عبر بالقناة من أمام داره ولم يدخل من مائها قطرة واحدة الى منزله. وحينما سأل عن ذلك، قال حتى لايقول الناس إنما حفر القناة لأجل صالحه ومصلحته. وقد ذكره الفارقي أيضاً بـ(الشيخ أبي بكر) بسبب من مكانته الأخلاقية. وتجدر الإشارة الى أن الفارقي قد ذكر في (ص٢٧٠) إبن خليل السمسار، الذي تم القبض عليه في فارقين من قبل الملك الدقاق بن تتش السلجوقي سنة ٤٩٣ هـ، فمن المحتمل أنه أو أبوه كان سمساراً في العهد الدوستكي.

ونقول أيضاً يمكن أن نستنتج مما تقدم أنه كان من نظام السمسرة في الدولة الدوستكية أن تكون

(٢٧) الدكتور حسن أحمد، وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٢٠٨

(٢٨) السمسار كلمة معربة من الكلمة الفارسية (سبسار) ويحتمل أن يكون أصلها آرامياً.

(٢٩)حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج٢، ص٥١٥.

في أيدي ذوي الأموال واليسار، لكي يتمكن السمسار من تكفل المشتري في المعاملات الضخمة ويكون محلاً للإعتماد والثقة بين البائع والمشتري كوسيط، وبهذه الصفة يتمكن من إنجاز المعاملات البيع والشراء بسرعة. وكلما إستطاع السماسرة الإسراع في تنفيذ البيع كلما كان لهم تأثير أكبر في تنشيط الحركة التجارية ودفعها الى الأمام. وهكذا تختلف السمسرة في تطبيقها المذكور عن (الدلالية) بمفهومها الشعبي الحالي الواطيء، لأنها كانت حينها وساطة بين البائع والمشتري في صفقات تجارية ضخمة، أو كانت وساطة (وكالة) أو شركة لنقل التجارة الخارجية على الأغلب حسب المصطلح الحالي في عصرنا هذا.

أما نظام الصيرفة والصكوك، فلم يصل الينا نص حول وجوده أو عدمه في الدولة الدوستكية. ويذكر بأن ذلك النظام كان موجوداً آنذاك في الدولة العباسية.

صادرات البلاد

كان ذلك الجزء من كُردستان في عهد الدولة الدوستكية وبتعبير أعم في القرون الوسطى، على ما إقتبسناه من المصادر التاريخية، يصدر منتوجاته الى البلاد الخارجية من المواد التالية:

الفواكه المجففة والجوز واللوز والدبس والحبة الخضراء (كەزوان) والسماق وكذلك مَنّ السما (گەزۆ). ومن الثروة الحيوانية كانت يصدر الأغنام والماعز والأبقار والخيول والبغال[٣٠] والصوف والجلود والدهون والجبن. وكان الصوف الكُردي في العهد الدوستكي، ولاسيما الأحمر منه، يعتبر من أجود أنواع الصوف بعد الصوف المصري. وأعتبر القبج (حجل) هو الآخر من الصادرات. ومن مواد الدباغة: العفص (مازي) و(گلور) وقشور الرمان، وكلها توجد بكثرة في كُردستان. هذا بالإضافة الى تصدير الأخشاب والفحم والقطران وعرق السوس للأغراض الصناعية والأغراض الأخرى.

ومن المصنوعات اليدوية التي كانت تدخل ضمن التصدير المنسوجات اليدوية من ثياب قطنية وصوفية وحريرية كالطيالسة الصوفية والستائر المطرزة والمزركشة المنسوجة بالذهب وكذلك المقارم والشراشف والمناديل والفرش والسبنيات[٣١]. أما من المعادن فكان يتم تصدير البورق وحجر الزجاج والرصاص والزرنيخ والحديد والنحاس والجبصين وأحجار الرحى السوداء البازلتية من نوع أحجار سور دياربكر. ومن المصنوعات المعدنية الموازين ودوايات الحبر. وأخيراً أحيل القاريء الى مواضيع

(٣٠) كانت كُردستان تصدر الى الخارج كميات كبيرة من الجوز واللوز على مر العصور. فقد ذكر نيبور، الذي زار الموصل في القرن الثامن عشر: أن أكثر من ألفي قنطار من البندق والجوز واللوز ترد سنوياً من كُردستان الى الموصل، حيث تقوم الموصل بتصديرها الى حلب. راجع الديوەچى، أعلام الصناع المواصلة، ص٣٨. نقلاً عن رحلة نيبور الى العراق، ص١١٤.

(٣١) السبنيات: نوع أسود من الثياب الحريرية وهي عبارة عن أزر النساء فيها أمثال الأترج، أي موشية. راجع فيروزآبادي: قاموس المحيط، البستاني، محيط المحيط مادة (سبن) وفي لسان العرب لإبن منظور مادة (سبن) أيضاً السبنيات ثياب غليظة من الكتان. وهو إسم غير عربي، ورد فيروزآبادي على صاحب هذا القول وأكد أنها ملابس حريرية. وذكرنا في موضوع الصناعات أن السبنيات كانت تصنع بفارقين فراجع هناك.

(الزراعة، الصناعات، والمعادن) إن كان يريد الإطلاع على الأماكن المنتجة لهذه الصادرات وعلى شرح بعض مواردها والمصادر التي إعتمدنا عليها.

المستوردات

كانت الدولة الدوستكية تستورد ما يحتاج اليه شعبها من مواد التجارة العالمية كان بعضها من منتجات بلدان الشرق الأوسط وبعضها الآخر من إنتاج الصين والهند والبلاد البيزنطية وغيرها. والمواد التجارية في القرون الوسطى بضمنها العصر الدوستكي كانت تأتي بصورة عامة من البلدان التالية:

الصين: منها كان يأتي الحرير والكاغد والغضائر (الصحون الكبيرة) والفغرند والسرج واللبود والمداد والمسك والعقاقير والرقيق.

الهند: منها كانت تأتي الأحجار الكريمة والسيوف وجلود النمور والصندل الأبيض والأبنوس وجوز الهند.

إيران: ترد منها الخوذ الفارسية ومرعز الشيرازية والإبريسم والسيوف والفراء والقطن والرقيق.

الخزر: ترد منها الدروع والبيضات والمغافر والعبيد والإماء.

سوريا: كانت ترد منها المنسوجات الحريرية وزيت الزيتون والسكر والزجاج والصابون.

مصر: كان يرد منها نسيج الكتان المشهور ونسيج الصوف، وقد ذكرنا في موضوع العلاقات مع الدولة الفاطمية وصول ثياب الكتان من مصر سنوياً الى الدولة الدوستكية.

البلاد البيزنطية: ترد منها أواني الذهب والفضة والعقاقير والديباج وبراذين (نوع من الحصان) والجواري وأقفال وثياب الصوف وثياب الكتان. وكان يقدم من البلاد البيزنطية الى البلاد الإسلامية أيضاً مهندسو الماء وعلماء الزاعة وبنّاؤو الرخام والاكارة(٣٢).

ومن المواد الكتابية كانت ترد من البلاد البيزنطية الى الدوستكية الرقوق، أي الجلود المهيأة للكتابة، ففي النصف الأول من العهد الدوستكي جدد يوحنا الرابع السبريني أسقف طورعبدين الكتابة السطرنجيلية السريانية، ولهذا إحتاج المذكور الى كثير من مواد الكتابة. فأرسل بطرس إبن أخيه الى ملاطية لجلب الرقوق(٣٣). يظهر حتى ذلك العصر أن الرقوق كانت مفضلة على الكاغد في كتابة الكتب المقدسة والمهمة كالإنجيل والقرآن، بل إن الرقوق كانت تستعمل في كتابة القرآن بعد العهد الدوستكي بحوالي قرنين من الزمن أو أكثر. إذ توجد مصاحف مخطوطة على الرقوق مؤرخة بتواريخ متأخرة، هذا مع العلم بأن ملاطية كانت آنذاك تابعة للبيزنطيين.

(٣٢) إن المواد التجارية العالمية التي ذكرناها موجودة في العديد من المصادر القديمة ومنها: التبصر بالتجارة للجاحظ. والمدنية البيزنطية، ص٩٤ لرنسيمان.

(٣٣) أفرام برصوم، تاريخ طورعبدين، ص٢٣٤ ـ ٢٧٢.

الطرق التجارية

كانت هناك في العصر الدوستكي عدد من الطرق التجارية التي كانت تربطها بالأقطار الخارجية، بحيث أن الدولة كانت تصدر منتوجاتها الوطنية وتستورد ما تحتاجه عبر تلك الطرق الرئيسية في البلاد وهي:

طريق دجلة المائي:

لما كان نهر دجلة(٣٤) صالحاً للملاحة وطريقاً للنقل والتجارة من قبل الشعوب القديمة منذ ما يقرب

(٣٤) يقال أن إسم (دجله) آري الأصل وهو(تيز) أي سريع الجريان، وهو غير صحيح بل إنه جاء من إسه القديم (أدگنا) الذي ورد في المسماريات السومرية وفي البابلية تحول الى أدگنت أو ادگت. وهو مع إسم الفرات (في السومرية بورانون أو بورونا وفي الأكدية بوراتي أو بوراتيم) يعود الى لغة قوم مجهولين سكنوا العراق قبل السومريين وقدموا من كردستان إذ سكن العراق وعمره أول مرة في التاريخ قوم نزحوا اليه من كُردستان في أواخر القرن السادس أو أوائل الألف الخامس قبل الميلاد. وينبع نهر دجلة وطوله حوالي ١٧١٨ كيلومتراً، من بحيرة كولجك في شمال دياربكر ويصب في خليج البصرة. وتصب في دجلة أنهار عدة كنت شخصياً قد عبرتها كلها ولي معرفة بها وأشير هنا الى الأنهار التاريخية منها: (١) نهر (أنبر) وسماه الفارقي نهر (الحو) وهو قادم من حانى وهو أول نهر يصب في دجله جنوب دياربكر. (٢) نهر باطمان (ساتيدما).(٣) نهر غرزان ويسمى أيضاً نهر رضوان وإسمه القديم (ساتيدما). (٤) نهر بوتان (الرزم) وهو الفرع الشرقي لدجلة. (٥) نهر (رەشينه) أو نهر مشار وينبع من سفوح مصيف دەشتاميرا قرب قرية تحمل نفس الإسم، ويمر في وادي كوريشا (وادي قريش)، على ما (في الكامل، ج١٢، ص٢٠٦) الذي هزم فيه الكُرد التتر هزيمة منكرة سنة (٦٢٨ هـ)، ثم يدخل سهل مشار ويصب في دجلة عند (خاناگيراخانێ) جنوب إلتقاء فرعي دجلة، ثم يصب فيها. (٦) نهر قادم من (دێرشەو) يسمى (روسور) يمر بقرية (باسرەت) الجميلة، وهي قرية مشايخ بوتان أسرة الشيخ حسين بن الشيخ خالد الزيباري، وقرية (هۆراش) ويلتقي به فوقها ماء (وەلاتێ بكاتێ) عند النقب وهو نفق صخري في مضيق يمر فيه الطريق العام ويصب في دجله في أسفل قرية شكەفتيان في موقع (بيرى دەل)، وسماه ياقوت الحموي في (معجم البلدان): مادة دجلة: نهر (يرني) ولعل الصحيح (برني) بالباء، وهو الآن إسم لكهف مفتوح كبير وعال فوق المصب عند شكەفتيان. (٧) نهر بينات (باعيناثا) ينبع من عند قرية بينات وعوينات في جنوب شرق فندك ويصب في دجلة في غرب قرية (زێوێ) قبالة قرية (بافێ)، ثم نهر فنك. (٨) نهر (بورى) أي (رويسۆر) كما يسمى الآن بكلا الإسمين (وينبع من جبال گابار في بوتان) وقد سماه ياقوت الحموي بإسم (بويار) و(بوري) بمعنى المخاض ويصب فيه بالقرب من قرية (مسوري) القريبة من مدينة الجزيرة. (٩) ويصب في دجلة في جنوب الجزيرة من الشرق أيضاً نهر (نێردۆش) وإسمه القديم نهر (دۆشا) ونيردوش منحدر منه. (١٠) نهر الخابور زاخو بعد أن يلتقي به (٩) نهر (هيزل)، وتصب في دجلة من الشرق نهيرات قصيرة منها (ماء شەوێ)، وهو الذي ورد إسمه عند إبن سرابيون بإسم نهر (باسانفا) نسبة الى قرية (باسا الواقعة في جنوب (شەوێ) ومصبه يقع في غرب مصب نهر بينات. أما من الغرب فالأنهار التي تصب في دجلة كانت قليلة أو صغيرة، لذلك أهملها الجغرافيون، ومنها نهر (سقلان - سەقلانێ مەما)، الذي يصب في دجلة بالقرب من مدينة الجزيرة جنوباً. وقد ورد إسم (سقلان) هذا في المقامات الزينية لإبن صقيل الجزري في (المقامة الجزرية) في القرن الثالث عشر الميلادي، والتي حققها ونال عنها درجة الدكتوراه الأخ الأستاذ الدكتور عباس مصطفى الصالحي من بعقوبة. وفي جنوب هذا النهر وبالقرب من الحدود العراقية السورية التركية يصب فيه نهر (سَفان) من الأراضي الكردية في سورية. وأورد ذكره المسعودي في التنبيه والإشراف، ص٥٤، وقال انه ينبع من ناحية العمر وقارة و(جبل الشيطان) أو علم السلطان ويقصد به الجبل المسمى عند الكُرد الان بـ(إيلم) القريب من الحدودالجنوبية لطورعبدين في الجانب التركي والواقع وسط سهول فسيحة. وذكر المقدسي في ص١٤٤ أول نهر يصب في دجلة بإسم نهر (الذيب) ثم الرمس ثم المسوليات، ولعل الأخير هو نهر (ساتيدما) أي نهر باطمان.

لقد أبدت دائرة المعارف الإسلامية في (مادة دجلة) إهتماماً بروافد دجلة، وذلك بتحديد أسمائها ومواقعها،=

من ثلاثة آلاف سنة، ومن تلك الشعوب الآشوريون الذين خلّدوا على آثارهم المنحوتة رسوم الرموس (الأكلاك) التي تدعمها القرب المنفوخة، والتي إستخدموها في طريق دجلة المائي. ولما أنشأ الامبراطور الروماني قسطنطين في مدينة دياربكر (آمد) داراً للصناعات الحربية من العجلات والطرادات، كانت بها ترسانة عظيمة للسفن الحربية(٣٥)، مما يفيد بأن الرومان إستخدموا نهر دجلة لأعمالهم العسكرية ضد الإمبراطورية الساسانية، حيث كانوا يرسلون الجيوش الإحتياطية الخلفية الى الجنوب بإتجاه الجزيرة وكُردستان الجنوبية والعراق إضافة الى إستخدامهم النهر في التجارة.

اما في العصور الإسلامية وبضمنها العصر الدوستكي، فقد إحتفظ نهر دجلة بإهميته كطريق مائي الى العراق حتى نهاية العهد العثماني. ثم فقد أهميته بسبب قيام الدولة العراقية الحديثة وقيام الحدود بين العراق وتركيا.

لقد أشار العديد من المؤرخين الى أهمية طريق دجلة المائي من الناحية التجارية، حيث كان قسم من تجارة كُردستان الوسطى وأرمينيا والبلاد البيزنطية تمر فيه الى الموصل والعراق. وكانت مدينة الجزيرة الواقعة على ضفة دجلة محطة للتجارة المارة بهذا الطريق، وقد أشار إبن حوقل الى ذلك(٣٦).

مآصر في دجلة

بالقرب من مصب (نهر شَوي) في دجلة شمالاً وقبالة (قلعة بافي) ذات النفقين الصخريين، هناك مَآصَر في دجلة. حيث توجد على ضفته الشرقية صخرة منفردة فيها ثقب (حلقة)، مازال شائعاً بين سكان المنطقة أن الثقب كان مكاناً لربط سلسلة حديدية تمتد من الضفة الى الضفة الجنوبية المقابلة. إذ كانت السلسلة تربط هناك عند بناية غير كبيرة مشيدة بالحجر والكلس تسمى قلعة على دينوا (كهلها على دينوا). شيدت القلعة الصغيرة للإشراف على المأصر لأخذ الأعشار، أي الضريبة النهرية من

=ولكنها لم توفق ووقعت في أخطاء بصدد نهر (يرنى- روسور) ونهر (باعيناثا)، وقد رجحت أن يكون نهر (باسانفا) الذي ذكره إبن سرابيون، (نهر سفان) وهو خطأ. إذ أن الاول من روافد شرقي دجلة والثاني بعكسه. واعترفت دائرة المعارف بعدم معرفتها بمواقع الانهار المذكورة مع نهر بوبار وبعدم معرفتها اسماءها الحالية. ووقع (ابن سرابيون - سهراب) في، عجائب الاقاليم، ص١٢٦، طبع ڤيينا في خطأ بصدد نهر (الذيب) ونهر (باسانفا)، حيث قال ان الاول هو نهر ارزن والثاني ياتي من ارض فارقين ويصب في دجلة قرب الجزيرة. واخذ بهذا الخطأ آخرون منهم سپاهي زاده في (اوضح المسالك، ص٣٠ مخطوط). اما الخطأ الثاني ففيما قاله من ان نهر (باسانفا) ينبع من ارض ميافارقين، ولكنه لم يخطيء في تحديد مكانه وهو كما قلنا (نهر شوى - نهر باسا). وقد اتخذت قرية باسا من قبل السلطات التركية في الثمانينات مركزاً لناحية بدلاً من (فندك). وذكر الخوارزمي ايضاً اسم نهر (الذيب) في كتابه (صورة الارض، ص١٣٠)، طبع ڤيينا، ولكنه لم يحدد موقعه، والراجح انه يقع فيما وراء دياربكر. اما الشريف الادريسي فخطأ في (نزهة المشتاق، ص٢٤٠) بصدد نهر (سربط - نهر غرزان) واعتبره بوتان (الرزم).

(٣٥) محمد أمين زكي، تاريخ الكُرد وكُردستان، ص١١٥.

(٣٦) إبن حوقل، صورة الأرض، ص٢٢٠. راجع أيضاً ريسلر، الحضارة العربية، ص١٣٤. آدم متز، الحضارة الإسلامية رفي القرن الرابع الهجري، ج٢، ص٢٩٠. الدكتور عبدالعزيز الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص١٣٨. لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٤٣.

الأكلاك، حيث كانت السلسلة الحديدية تشد بإرتفاع مناسب لمنع مرور الأكلاك. وبعد أخذ الضريبة كانت ترخى لتمر الأكلاك في سيرها. وكان نظام المآصر معمولاً به حتى عهد إمارة بوتان. ويحتمل أنه كان قديماً جداً ويعود الى عهد قلعة بافي، التي يرجع تاريخها الى العصر الأشكاني على أقل تقدير حسب رأيي. وقد زرت القلعة وصورتها في ١٩٧٧/٧/٧ مع تلميذي فقيد التراث الكُردي المرحوم ملا خلف رمضان البافهيى الذي أخذ الصورة فيما بعد وأرسلها اليّ. كان علي دينوا قد سيطر على المأصر متمرداً على إمارة بوتان حسب قصة شهيرة وكا من قرية (دينوا) على المرتفع الواقع جنوب دجلة وغرب (بافي). هذا وكان عند مدينة الجزيرة مآصر أيضاً مازالت بقايا سلسلتيه الحديديتين موجودة ومربوطة بسور الجزيرة في مكانين عند قلعة (برجا بەلەک). وقد ظن بعض المستشرقين أن السلسلتين هما بقايا جسر خشبي متحرك كان هناك على دجلة. ولكن الشائع عند سكان الجزيرة أنهما بقايا مأصر، ولا يذكر هؤلاء أنه كان هناك جسر متحرك. ويمكن أن تكون إحدى السلسلتين (وقد رأيتهما) للمأصر والأخرى لجسر متحرك. وكان هذا المأصر معمولاً به في عهد إمارة بوتان.

بناية المأصر

طريق شرقي دجلة

كان هناك طريق تجاري بري بمحاذاة دجلة من الجانب الشرقي يربط بين كُردستان الوسطى وأرمينية والبلاد البيزنطية، وبين العراق. وكان الطريق يأتي من آمد (دياربكر) ماراً بمنطقة بوتان (بهتان) وزاخو (حسنية) ومعلثايا (ملطا) قرب دهوك متجهاً الى الموصل. وكان فرع من ذلك الطريق يتجه من سعرد الى بدليس وخلاط وأرمينية، بينما كان الفرع الرئيسي يتجه الى مدن أرزن وفارقين وآمد. وكان هذا الطريق أضمن سلامة في العهد الدوستكي مع طريق دجلة المائي من طريق نصيبين – الموصل، لأنه كان يمر في المناطق الكُردية الى الموصل بعيداً عن نفوذ العشائر العربية وعن أعمال السلب. وقد مرّ الشاعر الكبير أبو العلاء المعرّي بهذا الطريق، فوجده في غاية الأمن كما مرّ كلامه، رغم وجود أنهار متعددة في هذا الطريق الذي يجتاز العديد من روافد دجلة، التي كانت تخلق المصاعب للقوافل التجارية وللمسافرين، خاصة أثناء إرتفاع منسوب المياه. ولكن كانت هناك جسور وقناطر وكذلك خانات على طول الطريق، ومازال بعض تلك الجسور والقناطر صالحاً لمرور المشاة، بينما هناك آثار لجسور أخرى ما زالت شاخصة. وكانت الدولة الأشكانية (الفرثية) قد أهتمت بهذا الطريق كما تدل عليه آثارها الباقية في هذا الطريق البري وطريق دجلة المائي أيضاً، أي على طرفي دجلة ومنها نفق (بافێ) في أسفل القرية بالقرب من ضفة دجلة الجنوبية الغربية، وقلعة بافي المطلة عليها وآثار أشكانية في قرية (هيتما) المطلة على دجلة في الجانب الآخر في شمال غرب بافى وجنوب باسا. ويحتمل أنها أجرت في الطريق توسيعات مقابل قلعة بافي بالقرب من مصب ماشوي (شەوێ) في دجلة.

لقد إهتمت الدولة الدوستكية بالجسور الواقعة على روافد دجلة، فقد ذكر الفارقي أسماء سبعة جسور هي: جسر الحسنية والحميدية وتل بنان وقطنيتا وبابوذين والإبراهيمية وبرسدي. وذكر بأن الملك الدوستكي نصرالدولة وقف عليها العقارات و"غرم عليه مالاً عظيماً"(٣٧).

لانستطيع أن نحدد مواقع هذه الجسور سوى واحد منها وهو جسر (تل بنان)، الذي ذكر الفارقي أن نصرالدولة شيده على نهر ساتيدما نهر (باطمان) سنة (٤٢٣هـ = ١٠٣٢م) عند قرية تل بنان والجنينة ليعبر عليه الى مدينة النصرية. وفي ٢٢ آب ١٩٧٧ تمكنت من إكتشاف آثار هذا الجسر بين قرية (پيلەكان) على الضفة الغربية وقرية (كيرك) على الضفة الشرقية. لم يبق من الجسر شاخصاً سوى دعامة واحدة في مكان عريض جداً من النهر. أما جسر (باطمان) الحالي، الذي يعد من أروع وأشهر الجسور في كُردستان، فإنه يقع فوق مكان جسر نصرالدولة بمسافة حوالي كيلومترين أو أكثر في موضع ضيق من النهر عند قرية (مالا بادێ). وقد وصفه أوليا چلبي بإعجاب في (سياحتنامه، ج٤، ص٧٦). شيد الجسر المذكور (حسام الدين تمرتاش) بن نجم الدين إيليغازي بن أرتق سنة (٥٤٢هـ)، على ما جاء في (دياربكر تاريخي، ج٢، ص٣٤٥) لبيسان أوغلو. وفيه كتابة الجسر وعليه صورة إنسانين يحتمل أن يكونا رجلاً وامرأة. ويظهر أن جسر نصرالدولة كان قد إنهار، ولذلك

(٣٧) تاريخ الفارقي، ص١٤٣.

جسر باطمان

قام تمرتاش بتشييد هذا الجسر في موقع صخري ذي أرضية قوية شبيه بموقع وأرضية پرا دەلال (جسر حسنيه) في زاخو، آخذاً بنظر الإعتبار إنهيار الجسر الذي شيده نصرالدولة على أرضية مختلفة.

لقد ذكر الفارقي أيضاً أن نصرالدولة شيّد جسراً على نهر (الحو)، أي نهر (حانى - أنبَر) وهو أول نهر شرق مدينة دياربكر في الطريق الى فارقين(٣٨). وكان على نهر غرزان نهر (سربط) عند مدينة أرزن في العهد الدوستكي جسر(٣٩). كما يوجد على نهر (كەزەر) أي النهر القادم من بدليس جسر قديم، ويوجد آخر على نهر بوتان الفرع الشرقي لدجلة أو نهر (الرزم) حيث توجد آثار جسر قديم على عدة أرجل(٤٠) فوق تل فافان (تلانێڤ روان)، أي فوق إلتقاء الفرعين ويسمى (پرا كچكێ) أي جسر الفتاة. وفي موقع منبسط يسمى (چەمێ شەوكيا). لقد زار هذا الجسر في سنة ١٩٧٩ تلميذي المرحوم الملا خلف رمضان البافەيى بناءً على طلبي، ثم كتب لي يقول بأنه توجد آثار خمسة من

(٣٨) نفس المصدر.

(٣٩) تاريخ الفارقي، ص٧٨.

(٤٠) يقع هذا الجسر الكبير فوق تلانيف روان (تل فافان). وفي أسفل قرية (بلوەريس) بمسافة قليلة، ويقع بالقرب من قاعدته الشمالية قرية (دير غالب) ويسمى الجسر أيضاً (پراشكەستێ)، وقد تهدمت بعض أقسامه. وقد شيدت الحكومة التركية في موقع أعلاه بمسافة حوالي كيلومترين جسراً كبيراً سنة ١٩٥٦ يسمى جسر (بلوەريس) ويبلغ طوله (١٣٠) متراً. وبالقرب منه على الضفة الغربية حمام مياه كبريتية ماؤه حار. ومن الجدير بالذكر أني لم أجد لحد الآن في أي مصدر ذكراً لهذا الجسر المهم. وقد أرسلت إستفساراً حوله الى تركيا بواسطة الطالبة (بلقيس حيدر من سكان مندلي). فأجاب عليه أحد أساتذة جامعة أنقرة، بأنه شُيّد من قبل ملكشاه السلجوقي، ولم يزد على هذا شيئاً ولم يشر الى أي مصدر. وإن ثبت ذلك فيكون تشييده إما في أواخر عهد الدولة الدوستكية أو إثر سقوطها، علماً بأن الأتراك ينسبون كثيراً من الآثار الى ملكشاه وآلب أرسلان بدون دلائل مقنعة، وذلك بمجرد كونها مشيدة في القرن الحادي عشر الميلادي. والجدير بالذكر أن إسم النهر ورد في=

قواعده الحجرية وقنطرة واحدة من الطابوق. يبلغ إرتفاع القنطرة عشرة أمتار وعليها كتابة لمن قام بتعميرها وهي "عمّرها إبراهيم علي وعبدالرحمن عبدالله" مع إحتمال خطأ في قراءتها، وهذه صورته:

جسر (پرا كچكي)

في جنوب الجسر على الطريق آثار خان يسمى (خانا چەمێ شەوكيا) وهذه صورته:

خانا چەمى شەوكيا

=بعض المصادر (رزم) بتقديم الزاي المعجمة. والجسر كغيره من الآثار العديدة التي ستغرق بمياه سد أولوسو، وقد نشرت صورته مع صور الاثار المذكورة في مقال مسهب بخصوص غرقها وغرق مدينة (حصن كيفا) الأثرية، نشرناه في جريدة (كوردستانى نوێ) الأعداد الصادرة في ١١/٣٠ و٦ و١٢/٧/٢٠٠٠.

قنطرة (على نهر مشار)

في جنوب الموقع بمسافة حوالي (٢٠) كلم يوجد خان يسمى (خانا گيرا خانێ) المشيد بالحجر المهندم والجص بجانبه آثار لغرفتين عهدهما أقدم. وهذا الخان الواقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة والواقع على الضفة الغربية لنهر (مشار) عند مصبه يضرب المثل بمتانته في بوتان وقياساته (١٩×٥٠,٧م)، وفي الجانب الجنوبي الشرقي للخان قنطرة (جسر) سالمة وجميلة على نهر مشار تعود الى القرون الوسطى. وفي الصفحة الشرقية من قاعدته الجنوبية غرفة قياس القنطرة (٣٣×٥٠,٣ م) وقد ألتقطت صورتها مع الخان في (١٩٧٧/٨/١٦).

وفي جنوب هذا الموقع بمسافة حوالي (٦) كلم بين قرية (چێلک) و(روسور) آثار خان قديم أيضاً يسمى (خانا كەوا) وعنده آثار مدينة كبيرة وقديمة جداً تسمى (دويڤى خريب) تمتد من ضفة دجلة الى سفح الجبل الكبير الواقع في شمالها، كما توجد آثار عديدة لمدن مندثرة على جانبي دجلة. وهذه الآثار كلها ستغرق نتيجة بناء سد (أولوسو) الذي تقيمه تركيا على نهر دجلة، بالإضافة الى منحوتة أشكانية بين (پيرێ دەل) و(چەمێ پاوان). وبالقرب من الخان شرقاً يأتي نهر (روسور) الذي ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان بإسم (يرني)، وعليه جسر خشبي كانت تمر عليه القوافل عند مقبرة (پيرى دەل - پير ئاڤدەل) والطاحونة المائية. ومن المحتمل جداً أنه كانت على النهر هناك قنطرة حجرية قديمة. وفي أعلى هذا الموقع بحوالي (١,٥) كلم قرية (شكەفتيان) على الضفة الشمالية للنهر، وهي عبارة عن مجموعة كهوف منها مسجدها الكهفي وعليه تاريخ (٥٥٠هـ = ١١٥٥م). وكان الطريق بين قسمي القرية يمر في نفق صخري. وصعوداً من شكفتيان بمسافة حوالي (٢) كلم

توجد قنطرة حجرية جميلة على النهر عند قرية (چەمێ گەور) الكهفية أيضاً، ولكنها غير صالحة للعبور. وتتجه تلك الطريق شرقاً الى قرية (گوينا) وتلتقي بالطريق الأشكاني في قرية (زڤنگا حاجى عەليان) وهي عبارة عن كهوف كثيرة وهي قرية جافة. وتعتمد القرية في توفير المياه على صهاريج كثيرة منحوتة في الصخور. وهي مسقط رأسي، كانت في العهد الأشكاني محطة في كُردستان (في١٢٧ ق.م-٢٢٧ ب.م) على الطريق الواقع بين مدينتي فنك (پيناكا - پنياكا) وبوتان العليا والسواحل الجنوبية لبحيرة وان وأرمينية، وذلك حسب تحقيقاتي الأثرية(٤١). إن لتاريخ مسجد شكفتيان أهمية، إذ من المحتمل أن تكون قنطرة (خاناگێرا خانێ) وقنطرة (چەمێ گەور) من نفس الفترة التاريخية.

وبالقرب من (پيري دل) جنوباً على الضفة الصخرية لدجلة عند موقع (دەڤ تەنور) ينحدر الطريق في بقعة منحوتة في الصخر، لعلها تعود الى العهد الأشكاني حيث نحتت على الطريق أي الصفحة الشمالية منه صورة لرسم نسر على قاعدة مرتفعة مع كتابات بهلوية أشكانية. والنسر هو رمز الإلهة ميترا (ميثرا - مهر) حسب رأيي. ولم أجد لهذا الأثر الذي صورته بتاريخ ١٩٧٧/٨/١٦ ذكراً في أي مصدر. ومن سوء حظ (لايارد) عالم الآثار بأنه عبر من تلك النقطة ليلاً، ولهذا لم ير هذا الأثر المهم. فلم يذكره في كتابه (نينوى وبابل)، وذلك حوالي سنة ١٨٤٧م، وفي الصفحة التالية صورة ذلك الأثر(٤٢).

بعد هذا الأثر بحوالي (٢) كلم يأتي موقع أثري مهم آخر يسمى (چەمێ پاوان)، وكانت مدينة أو مستوطنة قديمة فيها آثار من العهد الساساني أو الأشكاني وفيها أبنية حديثة ونهير. وفي الحافة الجبلية الصخرية الشاهقة المطلة على الموقع آثار منحوتة متعددة في الصخور الى جانب بناء صغير بالحجر والجص يصعب الوصول إليه، ولعلها تقع أمام قبر صخري يعود الى العهد الأشكاني أو

(٤١) في المرتفعات الجبلية التابعة لزڤنگ أكثر من ستين موقعاً عسكرياً (قلاع) معظمها صغيرة تعود جميعها أو معظمها الى العهد الأشكاني. وفي القرية وأطرافها حوالي (٢٠٠) كهف. ولهذا فهي كعشرات القرى في بوتان تعد من القرى الكهفية. وكانت دارنا تحتوي على كهفين أحدهما فوق الآخر، والكهف الفوقاني لا سبيل إليه سوى كوة دائرية تنزل إليه من فوق جانبه الجنوبي، وفي وسطه قبر محفور في الصخر وفوق القبر في سقف الكهف حلقة. ويتضح لي الآن بأنه قبر ميثرائي في سقفه حلقة منحوتة هي حلقة العهد المثرائي (المهري) من العهد الأشكاني. وقد وجدت خلال السنوات القليلة الماضية قبوراً كثيرة من هذا الطراز. وقد عثر قبل سنتين سنة على قبر جماعي في كهف يشبه سرداباً تحت الأرض عند الصهاريج الواقعة في شمال القرية. وهناك آثار لكهريز صخري يابس وقديم، فالقرية خالية من عيون الماء ماعدا واحدة ماؤها قليل تقع وراء صهاريج القرية. كانت تعيش في القرية حوالي (١٥٠) أسرة خلال السنوات الماضية. وفي مسجد القرية عمودان حجريان في قسم المسجد الكهفي على أحدهما تاريخ لسنة (١٢٠٤هـ = ١٨٢٤-١٨٢٥م)، وهو تاريخ ما شيّد من المسجد بالحجر والجص. وقد شيد المسجد بأمر من (بدرخان) أمير بوتان، على ما هو شائع بين أهالي القرية.

(٤٢) من المحتمل أن تكون دائرة الآثار التركية قد شاهدت المنحوتة وحلت رموز كتابتها، وقد حاولت الحصول على ما لدى تلك الدائرة من المعلومات إن وجدت ولكن دون جدوى. وقد إكتشفنا في الشمال منحوتة لكتابة پهلوية أخرى منحوتة ومكتوبة في نفس الوقت بمادة سوداء، وذلك في أسفل صخرة زنتها حوالي طن مستندة الى صخرتين والمسافة بينهما حوالي (١٠٠) متر وتقع على الجانب الشرقي من الطريق الحديث بحوالي (٨٠) متراً أو أقل.

منحوتة دَف تنور

الساساني. ويقع الموقع على الضفة الشرقية لدجلة مقابل جبل (زقنگا طورێ) المطل على دجلة من الغرب. ولابد أن يكون في (چەمێ پاوان) خان من العهد الإسلامي، وذلك في نطاق الإهتمام الكبير بطريق شرقي دجلة التجاري. وكان الطريق القديم يسير بمحاذاة دجلة ووراءه ويصل الى قرية (باسا)، ثم ينحدر ثانية، في طريق مرصوف بالحجارة، لعله لمرور العربات التي تجرها الخيول، الى ضفة دجلة. وهناك خان كما يسمى الآن وهو كهف بالجانب الشرقي من نهر شوي، وخان آخر بالقرب من مصب النهر باعيناثا وهو الآخر كهف. ويعتبر هذا الطريق هو الطريق الرئيسي والأقدم من غيره. وتتفرع منه (وربما كان ذلك في وقت متأخر بالنسبة لهذا الطريق القديم) طريق آخر بالقرب من (چەمێ پاوان) جنوباً يتجهة عبر سفوح السلسلة الجبلية الى (فندك)، التي كانت مركز ناحية تابع لقضاء (أوروه) التابع لولاية سعرد. وفي الجانب الغربي من القرية ظهرت مؤخراً آثار لبناء قديم لعلها لأحد الخانات. وكانت إحدى محطات هذا الطريق للقوافل التجارية بين الجزيرة سعرد حتى ستينيات القرن العشرين، أي قبل فتح طريق السيارات. بعد ذلك يمر الطريق في الجبل الواقع في الطرف الشمالي الغربي من نهر بينات (باعيناثا)، ويسمى ذلك الطريق (گەلی پەرپتی) الشهير. ونظراً لشدة إنحدار الصفحة الجبلية، فقد دشن الطريق بالأحجار والجدران الحجرية. ثم يعبر الطريق النهر والنفق المنحوت في الجانب الجنوبي للنهر، الذي أشرنا إليه سابقاً. ومن المحتمل جداً ان الطريق كان في القرون الوسطى يمر من (فندك) بقرية بينات (باعيناثا)، ثم ينحدر في وادي بينات العامر بالبساتين وأشجار الزيتون والصنوبر الطبيعية، حيث كان يلتقي بالطريق القديم (أو ما نسميه بالطريق الأشكاني)، الذي كان

يتجه شمالاً الى (زڤنگا حاجي عەليان) الذي أشرنا إليه سابقاً(٤٣).

بعد الخروج من وادي بينات وزيوى يدخل الطريق الى منطقة سهلية أو خفيفة التموج بين دجلة والسلسلة الجبلية حتى يصل بعد حوالي (١٢) كلم الى خرائب بلدة (فنك) القديمة وبساتين فنك الحالية الواقعة على ضفة دجلة. وتشاهد قطع من سور المدينة التي كانت في العهد الدوستكي مركزاً للإمارة البشنوية القوية. فلاشك إذاً في أنه كانت في فنك خان للقوافل ومازال قرب فندك وكذا عند مصب نهر باعيناثا في دجلة زورق بالمجاذيف اليدوية للعبور الى ضفة النهر الغربية خان ايضاً. ويمر الطريق من فنك في سفح السلسلة (سلسلة فنك وديرا) ليعبر نهر(روسور) أيضاً أي النهر الأحمر(٤٤)، وبعد عبوره بحوالي كيلومتر أو أكثر بقليل يوجد خان شهير بإسم (خانێ بانێ خانێ) الشهير قبالة مدينة الجزيرة. وفي أسفل الجزيرة بحوالي (٢) كلم توجد بقايا جسر كبير ومهم جداً على دجلة يسمى(پرا بافت)، الذي على قاعدته الغربية صور بروج فلكية(٤٥).

بعد هذه المحطة يأتي نهر (نێردۆش)، الذي ورد إسمه في المصادر (نهر دوشا) الذي ينحدر من القسم الغربي من جبل (الجودي) ويمر بقرية (شاخ) الشهيرة، التي على صخورها سبع منحوتات

(٤٣) كان الطريق (طريق المشاة لحد الآن) يتجه شمالاً من (زڤنگ) الى قرية هارش الواقعة على الضفة الجنوبية لـ(روسور) ويمر من شمال هارش من نفق منحوت في المضيق الصخري الى مدينة (دهێ)، وهي مركز قضاء تابع لولاية سعرد، ومن ثم الى السواحل الجنوبية لبحيرة وان والى مدينة (وان) وأرمينيا. وبناءً على طلبي سافر تلميذي الملا خلف البافهيى الى زڤنگ لإلتقاط الصور لبناية ذات طابقين في منتصف صخرة عالية تسمى (مرێ) مشيدة بالحجر والجص، ولعلها مقبرة من العهد الساساني. وسافر الملا خلف عاشق تاريخ وتراث كُردستان، وكتب في إحدى رسائله وسجل في الدفتر(١٠) من دفاتره –التي تزيد على الأربعة آلاف صفحة– وكلها لدي الآن حسب وصيته، وكتب في وصفها في الصفحات (١٤٦-١٥٣ من الدفتر ١٠). فقال ان طولها (٢٩) متراً وفي داخلها (٤٢) درجاً وقد نُحت النفق من الداخل بصورة دائرية. ومن المحتمل أن يكون هذا الأثر من العهد الأشكاني، كما يحتمل أن تكون فيه كتابة أيضاً أو رموز.

(٤٤) ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان عند البحث عن دجلة هذا النهر بإسم (بويار) . وفوق المعبر مضيق (قەسركا گێلێ)، والذي على جانبه الغربي منحوتة فارسية من العهد الأشكاني. أقامت الدولة الأشكانية إستحكامات كثيرة، حتى إنها شيدت أسواراً على السلاسل الجبلية في بوتان وكُردستان الجنوبية، لدرء خطر الرومان ولكيلا يتكرر إنتصار كإنتصار الإسكندر المقدوني على الشرق.

(٤٥) ورد إسم هذا الجسر في المراجع التركية الحديثة بإسم (جسر يافس). شيد الجسر في موقع يتسع فيه دجله، ويربط بين منطقة بازبدا ومنطقة باقردا. ذكر أبو شامة المقدسي في كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص١٣٨) أن جمال الدين الاصبهاني وزير عماد الدين زنكي، المتوفي سنة (٥٥٩هـ = ١١٦٥م)، شيد هذا الجسر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس، إلا أنه توفي قبل إكماله وقال أنه شيد جسراً آخر على نهر (الأرياد) عند الجزيرة، أي نهر قرية أرنبات الحالية وهو سَقلاني مَمان (على ما نبهني إليه اخي الملا احمد) وأضاف انه من ابنية الوزير التي لم يرَ الناس مثلها. وكذل قاله إبن الأثير في (الكامل، ج٩، ص٨٨) و(إبن الخميس الدياربكري، تاريخ الخميس، ج٢، ص٣٦٣) وكان تشييده للجسر عندما كان وزيراً لقطب الدين الزنكي ولم يكمله بسبب إعتقاله. لقد نحت على قاعدته الغربية صور بروج فلكية مثل الحوت والأسد والجوزاء والقوس والثور مع كتابة أسمائها بالعربية. لقد زار الموقع أستاذي المرحوم السيد عبدالرحمن مفتي الجزيرة إبن السيد علي الفندكي، وذلك بناءً على طلبي وكتب لي: أنه توجد بجانب الكتابات العربية كتابة أخرى غير عربية، مما يؤيد ما قاله علماء غربيون بأن الجسر ساساني كما في دائرة المعرف الإسلامية (ج٢، ص١٨٢، طبعة دار الجيل بيروت). ومن الجدير بالذكر أن الإسكندر المقدوني عبر دجلة من هذه النقطة أو من مكان قريب منها وذلك سنة (٣٣١ ق.م).

پرا بافت

آشورية. ويحتمل أنه كانت عليها قنطرة، لأن مجراه عميق وصعب العبور في الشتاء والربيع، ثم يدخل الطريق سهل سلوپي (سهل باقردا) التاريخي الى أن يصل الى هيزل شمال غربي زاخو بـ(١٠) كلم عند آثار جسر قديم. وعند زاخو (ضمن المدينة حالياً) يوجد جسر (پرا دەلال) الشهير على نهر خابور(٤٦) ويحتمل أنه جسر الحسنية الذي وقف عليه نصر الدولة عقارات.

وبعد إجتياز ممر زاخو يدخل الطريق الى سهل سليڤاني (سهل معلثايا)، ومن المحتمل أن يكون عند قرية (باستكن) التي تبعد عن زاخو (٢٧) كلم. كانت القرية ذات التل الأثري محطة للقوافل في عهد (نرام سين) الأكدي في الألف الثالث قبل الميلاد على ما أشرنا إليه سابقاً. ثم كان الطريق يصل بعد (٢٣) كلم الى مدينة (معلثايا - ملطا) الواقعة على الضفة الغربية من نهر دهوك، أو يمر

(٤٦) يسمى پرا دەلال الآن، وفي المراجع العربية بـ(الجسر العباسي)، وهو إسم حديث ولا علاقة له بالدولة العباسية. كان الجسر موجوداً في القرن العاشر الميلادي حسب أوصاف المقدسي له في (أحسن التقاسيم، ص١٤٧) والتفاصيل في مقالنا الخاص به والمنشور في (مجلة بين النهرين، العدد ٢٧). وقد رُبط بين أحجار الجسر من الداخل بقضبان حديدية. والجسر أصبح الآن ضمن مدينة زاخو ولازال سالماً. وقد حدث لي مؤخراً الرأي بأن الجسر يعود الى العهد الساساني، وذلك إستناداً الى طراز قوسه الكبير قليل التحدب والبيضوي والمطابق للأقواس الساسانية التي رأيت منها قوساً في قلعة جند (قەلای جوندی) في وادي زرزي في منطقة السليمانية. وفي غرب الجسر على مسافة حوالي كيلومتر توجد آثار جسر آخر ضمن المدينة على الفرع الجنوبي للنهر، الذي يتفرع ضمن مدينة زاخو الى فرعين. وبالقرب من آثاره شرقاً جسر سالم شيدته إمارة بهدينان على ما يعرف عنه. وأن نهر الخابور يقسم مدينة زاخو الى ثلاثة أقسام، وتقع قلعة المدينة في القسم الأوسط وهي مطلة على القسم الرئيسي من النهر وهو القسم الشرقي.

بالقرب منها غرباً، حيث الطريق العام الحالي عند جسر (آلوكا). وكان الطريق القديم يطابق هذا الطريق العام من آلوكا الى الموصل (٦٤) كلم.

هكذا يظهر من الخانات والجسور المتوفرة في منطقة بوتان على طريق شرقي دجلة مدى أهمية هذا الطريق التجاري. وليست لي معرفة دقيقة مماثلة بالمناطق الأخرى من الطريق، كي أشير الى ما هناك من جسور وخانات متصلة ما عدا متفرقات منها، مثل كاروان سرا (خان) عند مدينة حصن كيفا وفندق شيده نصرالدولة مع مسجد عند قرية كيرك (تل بنان) على الطريق الجنوبي لجسر باطمان، وخانين في طرفي جسر باطمان.

طريق دياربكر- نصيبين- الموصل- كُردستان والبلدان الشرقية:

كان هذا الطريق جزءً من أطول وأهم الطرق التجارية البرية، وكان يربط بين الشرق والغرب القديمين. فكانت التجارة الشرقية ترد من سيلان والصين والهند الى أفغانستان وإيران والعراق، وتصل الى نصيبين ودارا، ثم يمر قسم منها متجهاً الى سوريا ومواني البحر الأبيض المتوسط، بينما كان قسم آخر منه يمر بآسيا الصغرى(٤٧) وأوروبا، علماً أن الموصل لم تكن حينها تعتبر من المدن. وكانت الامبراطورية الرومانية تنازع الدولة الأشكانية (الآرية) السيطرة على طريق نصيبين والرها (أورفا)، التي هي اليوم من البلاد الكُردية.

ومن بعد الرومان توجهت أنظار البيزنطيين للسيطرة على هذه البقعة لأهميتها الإقتصادية. ونشبت لذلك حروب كثيرة، سواء بين الدولة الأشكانية الرومان أو الدولة الساسانية والبيزنطيين. "وفي القرن السادس الميلادي كان الحرير لايزال يسير براً بصفة رئيسية خلال فارس الى محطتي المكوس الامبراطوريتين عند نصيبين ودارا، ثم ينتقل الى مصانع قسطنطينية وصور وبيروت)(٤٨).

والصحيح أنهما محطتا الگمارك بين الشرق والغرب، حيث كان حرير الصين وأحجار سيلان الكريمة والسلع التجارية الأخرى تصل الى بيزنطة والغرب عبر هذا الطريق. وكانت تقع على طريق دياربكر – نصيبين مدن دارا وكفرتوثا وقصر بني نازع(٤٩)، التي كانت محطات للقوافل التجارية.

رغم أن طريق دياربكر – نصيبين كان معروفاً كطريق تجاري يربط بين الشمال والجنوب، إلا أن اهميته قد إزدادت في عهد الدولة الدوستكية (التي كانت نصيبين من أمهات مدنها لحوالي أربعين سنة)، لأنها كانت تربط بينها وبين العاصمة فارقين. وقد إزدادت أهمية طريق نصيبين – آسيا

(٤٧) آرچيبالد، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ص١٧.

(٤٨) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص١٩٦.

(٤٩) إبن خرداذبه، المسالك والممالك، ص٩٦، عين مقدار المسافات من نصيبين الى أرزن بسبعة وثلاثين فرسخاً، ومن نصيبين الى دارا خمسة فراسخ، ثم الى كفر توثا سبعة والى قصر بني نازع ستة، ثم الى دياربكر (آمد) سبعة، ثم الى فارقين خمسة ومنها الى أرزن سبعة فراسخ. أما سكك البريد أي محطاته على هذا الطريق، فكانت إحدى عشرة سكة، تشرف عليها الدولة ومنها ثلاث بين نصيبين وكفرتوثا. وسبع محطات بين كفر توثا وديار بكر، وذلك حسبما ذكره قدامه بن جعفر في كتاب الخراج، ص٢٢٩. والجدير بالذكر أن كل ستة فراسخ مرحلة (أي مسيرة يوم واحد)، والفرسخ حوالي سبعة كيلومترات. أما الشريف الإدريسي فقد عدّ المسافة بين نصيبين وديار بكر بالأميال ومجموعها (٧٨) ميلاً. راجع كتابه نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، ص٢٣٣.

الصغرى ماراً بالبلاد الدوستكية وبمنطقة دياربكر تحديداً، في أوقات توتر العلاقات بين الدولتين البيزنطية والفاطمية. فقد كانت الأخيرة تسيطر على طريق حلب - آسيا الصغرى في الوقت الذي كانت العلاقات متينة بين الدولتين الدوستكية والبيزنطية والطريق بينهما آمناً.

وعند إضطراب طريق أذربيجان - أرمينيا - طرابزون (وكان هو الآخر طريقاً تجارياً عالمياً) بسبب هجمات السلاجقة على أرمينيا وجنوب روسيا إزدادت أهمية طريق نصيبين، حيث تحولت التجارة العالمية الى الجنوب، أي الى سورية ومصر. ففي الوقت الذي كانت تجارة مصر مع بلاد المغرب أقل أهمية بعد سنة (١٠٥٢م)، بسبب حركات بني هلال وأسباب أخرى، ظلت علاقات مصر التجارية مستمرة مع البلاد الشرقية أي فارس والهند والصين(٥٠).

طريق دياربكر- ملاطيه- أناضول:

إزدادت أهمية هذا الطريق، الذي كان يربط بين أقليم دياربكر والبلاد البيزنطية، بسبب العلاقات الودية بين الدولة الدوستكية والبيزنطية ولإستتباب الأمن فيه. وكانت التجارة بين الدولتين تمر بهذا الطريق، وسبق أن أشرنا الى أن التجارة الواردة الى دياربكر كانت تنقل منها الى الموصل والعراق عن طريق نهر دجلة غالباً.

وكان هناك طريق آخر أقل أهمية من الأول يربط بين دياربكر بالشمال والشمال الشرقي، وكان يمر من تل جفر ومدينة شمشاط على نهر موردا (ارسناس)(٥١) الى قاليقلا أي أرضروم الى منابع نهر آراس ونهر الكر في منطقة دبيل (ديوين) والى الفرع الشمالي (قره سو). وكان هناك طريق آخر

(٥٠) آرچيبالد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ص٣٨٩.

(٥١) شمشاط مدينة مندثرة تقع آثارها على ضفة نهر (موراد) الفرع الشرقي للفرات وذلك بين العزيز وبالو، راجع: NOREDDIN ERDIÇ OGLU, HARPUT TARIHI، ص٢٥-٢٦. ذكر كل من إبن خرداذبه والمقدسي كلاً من شمشاط وتل جفر ضمن طريق دياربكر شمال سوريا. لكن المقدسي ذكر شمشاط أيضاً ضمن طريق ملاطيه في ص١٥٠. وكذلك الإدريسي في ص٢٣٣ ولكنه ذكر سميساط مكان شمشاط، فلا ندري هل إن هناك مكان بإسم شمشاط أخرى أم لا؟ راجع مؤلفاتهم بالتسلسل: المسالك والممالك، ص٩٦. أحسن التقاسيم، ص١٤٩، نزهة المشتاق، ص٢٣٣، ٢٢٨. من الجدير بالذكر أن إبن حوقل سلك شخصياً طريقاً يربط بين فارقين وملاطية، وذكر في ص١٧٩ تفاصيل الطريق من ملاطيه الى القسطنطينية. وتقع على طريق فارقين - ملاطيه أماكن مجهولة بالنسبة إلينا لم يذكرها غيره بهذا الشكل. وقال إن المسافة من فارقين الى هتاخ مرحلة والى حصن ذي القرنين مرحلة خفيفة، والى مدينة الإدريس خمسة فراسخ، والى ضيعة القس ثلاثة فراسخ، والى مدينة هباب خمسة فراسخ، والى قرية انكليس ستة فراسخ، والى قرية كلكس ثلاثة فراسخ، والى حصن زياد (العزيز - آلازك) إربعة فراسخ عبر الفرات، والى قرية الحمام أربعة فراسخ عبر نهر القباقب، والى مدينة عرقا أربعة فراسخ والى ضيعة وادي الحجارة ووادي البقر ستة فراسخ، ثم كان الطريق يمتد في البلاد البيزنطية الى سمند أنقره... وكانت الضيعة المذكورة آخر حدود البلاد الإسلامية آنذاك، حيث البلاد البيزنطية ولكن البيزنطيين وسعوا حدودهم بعد ذلك وأثناء ضعف الحمدانيين بإتجاه إقليم دياربكر الى خط لا أستطيع أن أحدده. ولكن يفهم من كلام إبن حوقل أن مدينة الإدريس وقعت في قبضة البيزنطيين في تاريخ لاحق من سفره، وذلك موقتاً كما أظن. ويحتمل أن قرية الحمام هي مورحمام الحالية الواقعة جنوب بلدة (أركوان) بالقرب من الضفة اليمنى للفرات. إن تحديد الأماكن التي ذكرها جديرة بالإهتمام وخاصة المدن، ويحتمل أن أنكليس هي (آگل) المشهورة.

يربط دياربكر بالبلاد البيزنطية يتجه من دياربكر غرباً الى سميساط أي حصن منصور (آديَمان).

طريق دياربكر – بلاد الشام

على طول المسافة بين دياربكر وحلب كانت تقع الأماكن والمدن التالية: جرنان، بامقدا، جلاب، الرها، سروج ومنبج. وكان يتفرع طريق آخر من الرها الى الرقة ماراً بحرّان، وكان هذا الطريق على جانب كبير من الأهمية بتكملته الشرقية.

طريق دياربكر – بدليس – خلاط – أرمينيا – أذربيجان

كان هذا الطريق يربط بين البلاد الدوستكية والبلاد الشرقية وقفقاسيا، وكانت التجارة الأرمنية تصل عبر هذا الطريق الى الموصل والعراق. وكان هذا الطريق يتفرع الى فرعين عند مدخل ممر بدليس الغربي بالقرب من موقع (ويس القرني). فبينما كانت أحد فروعه تتجه نحو الغرب الى أرزن وفارقين وديار بكر، كان الفرع الآخر يتجه جنوباً الى سعرد ومدينة الجزيرة ماراً ببوتان، أي كان يتصل بطريق شرقي دجلة المار ذكره. وقد أشار العديد من المؤرخين الى أهمية طريق بدليس ومنهم القلقشندي الذي قال انه: "طريق المارة وقصاد الأبواب السلطانية الى الأردو"(٥٢)، أي أنه كان يربط بين بلاد الشام ومصر، من بلاد دولة المماليك، وبين إيران وپاكستان (الأردو)، حسب قول القلقشندي وكان كاتب الإنشاء في الديوان السلطاني بمصر مطلعاً على الطرق والبلدان.

وفضلاً عن موقع بدليس الإستراتيجي الذي جعل منها معقلاً للكُرد، فقد كانت مركزاً من مراكز التجارة بين الشرق والغرب(٥٣) حيث كانت القوافل التجارية وكذلك الحجاج القادمون من البلدان الشرقية يمرون ببدليس، الواقعة في ممر جبلي إستراتيجي للغاية يبلغ طوله حوالي (٧٠) كلم. ويبدأ الممر شرقاً من بحيرة وان وبينهما جدار لولاه لما كان للبحيرة وجود. ويمر الطريق بالقرب من مدينة بدليس في نفق صخري قديم مشهور يسمى (بەرێ زەر)(٥٤).

كان المسافرون يلاقون صعوبات جمة في هذا الطريق أيام الشتاء لكثرة تساقط الثلوج. ولهذا كان موظفوا البريد المشرفون عليه في العهد الدوستكي والعهود الأخرى، ينصبون أعمدة فيه ليهتدي بها المسافرون. وقد سلك ناصر خسرو هذا الطريق في العهد الدوستكي وتحدث عن تلك الأعمدة وفوائدها، ونزل وهو متجه من خلاط الى بدليس في (رباط كاوان سراي) وكانت الثلوج تتساقط

(٥٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٧٩.

(٥٣) أحمد عطية، القاموس الإسلامي، ج١، ص٢٩.

(٥٤) تاتي إستراتيجية ممر بدليس من كونه الممر الوحيد من نوعه في منطقة واسعة من مناطق جبال طوروس، حيث لا وجود لممر مشابه الى مسافات شاسعة من تلك الجبال شمالاً وجنوباً. ويتمتع المرء فيه بمناظر خلابة حيث تعلو الممر جبال شاهقة مغطاة بالغابات الطبيعية، كما يجري في الممر السحيق نهر بدليس إضافة الى مياه العيون التي تنحدر من جوانبه. وتقع في هذا الممر مدينة (بايقان) مركز إحدى أقضية سعرد. وقد خربت تركية نفق (بەرێ زەر) جراء شق طريق للسيارات، وذلك دون مراعاة للأهمية الأثرية والتاريخية لهذا النفق.

والبرد قارصاً، وذلك في تشرين الثاني من عام ١٠٤٦م(٥٥).

وكان هذا الرباط (الخان) تحت إشراف الدولة الدوستكية، كغيره من الربط الواقعة في النقاط الحساسة من الطرق والتي شيد نصرالدولة عدداً منها، كما سيأتي في موضوع الآثار العمرانية. وكان كل رباط (خان) عادة يشتمل على غرف للمسافرين وإسطبل للدواب. وكان المكلفون بإدارته من قبل الدولة يزودون المسافرين بالطعام ودوابهم بالعلف. والرباط (الخان) الذي نزل به ناصر خسرو يقع في عقبة تطل على بحيرة وان عند بداية ممر بدليس الشرقية وكان يعرف بـ(دهشتا رهوا)، ومنه يتفرع طريق موش. ويطل على تلك العقبة (زينو) من الشمال الشرقي جبل نمرود البركاني. والموقع يعد من أشهر المواقع في كُردستان الشمالية لبردوته وكثرة ثلوجه. ويوجد في نفس الموقع حالياً رباط أي خان مع بناية للموظفين المشرفين عليه من قبل الحكومة التركية. وكان يوجد خان أو رباط في نهاية ممر بدليس (گەلی بدلیس) أي مدخله الغربي بإسم رباط (أويس القرني) في العهد الدوستكي(٥٦).

الأوزان والمكاييل

الرطل والمَن كانا من الأوزان المتداولة في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي. وأما الرطل فلم يكن وزنه موحداً في كافة المناطق. فقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن وزن الرطل المتداول في مدينة خلاط هو (٣٠٠) درهم(١)، بينما ذكر بأن وزنه في مدينة فارقين هو (٤٨٠) درهماً(٢). وعلى هذا فإن رطل خلاط كان يساوي (٤٨٠) غراماً، بينما كان رطل فارقين يساوي (٧٦٨) غراماً(٣).

(٥٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٦.

(٥٦) ذكر ناصر خسرو هذا الرباط بإسم جامع أويس القرني، بينما ورد في بعض المصادر بإسم (رباط) وهو في الواقع رباط وجامع ومزار مشهور يقول الناس أن أويس القرني، الذي عاش في القرن الأول الهجري مدفون هناك علماً أن هناك رواية تاريخية بكون أويس توفي أو قتل في أرمينية. ولهذا فهو مزار معروف منذ قرون يزوره الناس من أماكن بعيدة، وفي سنة ١٩٧٥ قام أحد أغنياء سعرد بتجديد عمارة المسجد وبنى منارة له.

(١) مما تجدر الإشارة اليه هو أن رطل خلاط كان مطابقاً للرطل المتداول في منطقة خوي وأورميه من كُردستان الشرقية، على ما ذكره المقدسي في أحسن التقاسيم، ص٣٨٠. أما رطل بغداد فكان (١٣٠) درهماً أي أقل من رطل خلاط بكثير.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٠.

(٣) بالنظر لتكرر الأوزان والمكاييل القديمة في المصادر وعدم معرفة مقاديرها حسب الأوزان والمكاييل الحديثة ونظراً لأهمية تحديدها، فقد راجعت قواميس اللغة وكتباً أخرى للتأكد من مقدار كل منها. ثم حددتها على أساس الغرام إبتداءً من المثقال الذي يساوي (٦٩) حبة شعير متوسطة، حيث وزنت شخصياً هذا المقدار من الحبوب عند الصاغة، فبلغ غرامين كاملين وإليك تحديد بعض تلك الأوزان والمكاييل، نذكر تحديد عدد آخر منها في متن الكتاب:

مكوك: ثلاث كليجات يساوي (٥٥,٨٩٠) حبة = ١٦٢٠ غراماً

كليجه: مَن واحد وسبعة أثمان المن = ١٨٦٣٠ حبة = ٥٤٠ غراماً

المن رطلان = ٩٩٣٦ حبه = ٢٨٨ غراماً

الرطل = إثنتي عشرة أوقية = ٤٩٦٨ حبه = ١٤٤ غراماً=

أما المن فقد وجده ناصر خسرو مستعملاً أيضاً في كُردستان عند ذكره لبدليس وأرزن [٤] لكننا لانعلم مقدار (المنّين) المستعملين في بدليس وأرزن، فهل هما مستندان الى رطل خلاط أم رطل فارقين أم الى رطل آخر؟ مع ما يلاحظ من قرب بدليس من خلاط وقرب أرزن من فارقين[٥].

والـ(مَن) لازال من الأوزان المتداولة حتى الآن بين القبائل الكُردية في ذلك الجزء من كُردستان وكذلك الأوقية (وەقيه)، ولكن وزنهما الحالي أكبر بكثير من وزنهما القديم. وأما الدرهم فكان أغلب الظن متداولاً في البلاد الدوستكية مع ملاحظة إعتباره جزءً من أجزاء الرطل والمقصود بالدرهم هنا هو الوزن وليس النقود.

أما المكاييل المتداولة في الدولة الدوستكية، فلم نطلع سوى على المكيال والمكوك والكارة والجريب. وأما المكيال والمكوك، فقد أورد ذكرهما إيليا برشنايا مطران نصيبين في العهد الدوستكي، حيث ذكر في تاريخه أن في سنة (٣٩٦هـ = ٤٠٦م) حدث غلاء في البلاد، فبلغت قيمة مكيال الحنطة درهماً واحداً وثلاثة مكاكيك من الشعير درهماً أيضاً ومكيالاً واحداً من السمسم عشرة دراهم[٦].

وبيّن كذلك بأن المكيال هو ثمانية مكاكيك، إلا انه لم يبين مقدار المكوك. ولكن المقدسي حدد قبل

=الأوقية = أستار وثلث أستار = ٤١٤٠ حبه = ١٢ غراماً
الأستار = أربعة مثاقيل ونصف = ٥ , ٣١٠ حبه = ٩ غرامات
المثقال = درهم وثلاثة أسباع الدرهم ٦٩ حبه = غرامان
الدرهم = ستة دوانق = ١/٢ ٣٣ حبه = ١,٦ غرام تقريباً
الدانق = قيراطان
القيراط = طسوجان
الطسوج = حبتان
وهناك مكاييل أخرى مثل المُدّ وهو رطلان بغداديان وقيل رطل وثلث الرطل، والصاع أربعة أمداد.

الجدير بالذكر أنه توجد في المراجع اللغوية خلافات بخصوص بعض ما تقدم. راجع بصدد الأوزان والمكاييل المتقدمة: الجوهري، الصحاح، ج٤، ١٠٩٦. إبن منظور، لسان العرب، مادة (رطل) و(مكوك) و(مثقال) ودانق (الصاع). والفيروزآبادي، قاموس المحيط مادة (رطل) و(مد). وراجع أيضاً أحمد بن محمد المقري، مصباح المنير، مادة : رطل ودرهم ودانق ومد. وراجع أيضاً بطرس البستاني، محيط المحيط، مادة درهم ورطل. وراجع أيضاً عبدالله البستاني، البستان، مادة درطل. والمازندراني سيد موسى، عقدة المنير، ص١٣٠ الى ص١٤٢.

(٤) ناصر خسر، ص٤٢ و٤٧.

(٥) في هامش (١١٨) من أزهار الأفكار في جواهر الأحجار للتيفاشي نقلاً من (النخب) للكرملي، أن المَن في أول وضعه كان (٧٩٤) غراماً و(٢٥) سنتيغراماً، ثم تبدل بعد ذلك حسب الزمان والمكان. ومما تجدر الإشارة إليه هو أن (المَن) كان متداولاً في العهد السومري وكان يسمى منا (mana)، وكان مقداره (٥٠٥ غرام) كما قال الدكتور فوزي رشيد في مقاله (التجارة والصناعة قديماً...) المنشور في جريدة (الإتحاد) العراقية العدد الصادر في ١٩٨٨/٦/٥. وقال جورج كونتينو في (الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ص١٦٢): أن المَن في بلاد الرافدين القديمة كان يسمى مانو (مينا) وكان (٦٠) شقلو وهو يساوي (١٨) أونصه.

(٦) تاريخ إيليا برشنايا، ص٨٣، مطبوع على الآلة الطابعة، أرى أن الصحيح ديناراً بدلاً من درهماً.

التاريخ المذكور بحوالي (٢١) سنة مقدار المكوك المتداول في بلاد الجزيرة (بضمنها إقليم دياربكر) بخمسة عشر رطلاً[٧]، أي بقدر رطل بغداد وهو (١٣٠) درهماً[٨]. وحدده أيضاً بأربعة أمداد بـ(مد) الجزيرة. فعلى هذا ان المكوك كان يساوي (٣١٢٠) غراماً والمكيال يساوي (٢٤٩٦٠) غراماً، أي ما يقارب (٢٥) كيلوغراماً. أما الكارة فقد ذكرها الفارقي وإبن شداد، غير انهما لم يبينا مقدارها[٩].

ولكن المقدسي ذكر ان الكارة بهذا التحديد تساوي (٤٩,٩٢٠) غراماً، بينما يساوي القفيز (٢٤٨٠) غراماً أي كيلوغرامين و(٤٨٠) غرام. وإن لم يكن هذا التحديد مطابقاً لمقدار (كارة) دياربكر في العهد الدوستكي، فهو قريب منها لما ذكر الفارقي من ان إبن دمنه كان يحمل كارة حنطة ذات يوم...[١٠].

أما الجريب فورد ذكره من قبل الفارقي وإبن شداد عندما ذكرا بأن نصرالدولة كان يوزع على الفقراء يومياً جريباً من الحنطة إيفاءً لنذر له[١١].

فعلى هذا انه يساوي الكارة اي (٤٩٩٢٠) غراماً. أما الكر، وكان اكبر المكاييل، فلاشك انه كان مكيالاً قديماً في كُردستان. وكان هذا المكيال متداولاً في العهد السومري بإسم (گور) (Gur) وكان مقداره آنذاك (٣٠٣) كيلوغرام[١٢]، وكان متداولاً في العهد الدوستكي. وقد اتفق اللغويون على ان (الكر) كان يبلغ ستين قفيزاً أي ما يساوي (٧٤٨) كيلوغراماً و(٨٠٠) غرام. وقد وجدت في بعض المصادر الحديثة بأن القفيز يساوي (١٨) كيلوغراماً والجريب (٧٢) كيلوغراماً والكر (١٠٨٠) كيلوغراماً.

يحتمل ان المكيال والمكوك اللذين أوردهما المطران إيليا متدرجان من رطل آخر غير رطل بغداد كرطل فارقين مثلاً، والذي يعتبر أثقل من رطل بغداد مع وجود إحتمال للزيادة اوالنقصان في الجريب. اذ من المحتمل ان الاوزان والمكاييل كانت تختلف في كُردستان عما هي عليه في بلد آخر. ومن المحتمل جداً ان الصاع كان متداولاً في البلاد ويعرف الصاع في كُردستان الآن بـ(فطره) وهو أربعة امداد. اما المد فكان متداولاً في اقليم الجزيرة كالقفيز على ما ذكره المقدسي ايضاً[١٣].

يحتمل أن الكتاب الذي الفه ايليا برشنايا في الموازين والمقاييس كفيل بالقاء الضوء على الاوزان والمكاييل المتداولة في كُردستان أيام الدولة الدوستكية[١٤].

(٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٥، ذكر أن رطل الجزيرة هو رطل بغداد.

(٨) في العقد المنير للمازندراني، ص١٣٠ أن الرطل العراقي (أي رطل بغداد) كان يساوي (١٣٠) درهماً، وفي المصباح المنير، مادة (رطل) أنه يساوي ١٢٨ ١/٢ درهماً وقد إعتمدنا على الأول.

(٩) الفارقي، ص٨٣. والأعلاق الخطيرة، الورقة ٨٣.

(١٠) الفارقي، ص١١٥. والأعلاق الخطيرة، الورقة ٨٩.

(١١) الفارقي، ص٨٣، كانت هذه الكمية من الحنطة من واردات قرية عطشا.

(١٢) مقال للدكتور فوزي رشيد في جريدة (الإتحاد) الصادر في ١٩٨٨/٦/٥.

(١٣) المقدسي، احسن التقاسيم، ص١٤٥.

(١٤) راجع ترجمة حياة ايليا في موضوع الحياة الثقافية: علماء مسيحيون.

اخيراً إذا القينا نظرة على أوزان النقود الدوستكية، التي ذكرناها في موضوع (العملة الدوستكية)، نرى مدى دقة الأوزان في كُردستان انذاك. إذ كان يبلغ وزن البعض من نقودها (٢,٨٨٩) غرام.

التنظيم الحرفي والأسواق

كانت الدولة الدوستكية قد نظمت الجماعات الحرفية والمهنية في جمعيات مختلفة كل واحدة منها تختص بإحدى الجماعات كالتجار والحاكة والخياطين والحدادين والصفارين والخشابين والفحامين والجصاصين والبنائين والأطباء والصاغة وبائعي المواد الغذائية والقصابين والبزازين (أي بائعي الأقمشة) وبائعي الخضراوات والفواكه. وكانت الحرف والمهن موزعة على أسواق مختصة، وكان لكل صنف سوقه المسمى بإسمه، كما كان لكل سوق موظف يشرف عليه يسمى (الشيخ) و(الرئيس) أيضاً. وإستعمل الفارقي مصطلح (مقدم) و(متقدم) و(الشيخ) لرئيس التجار علماً أن (مقدم) أو (متقدم) أستعمل لمسؤول المحلة للفتوة كما سيأتي. وكان (شيخ السوق) مرتبطاً بـ(النقيب) والنقيب مرتبطاً بـ(المحتسب). وقد ذكرنا في موضوع الحسبة واجبات المحتسب وصلاحياته. وكانت الحسبة هي النقابة العامة في العاصمة، وكانت في المدن نقابات للأصناف أي للحرف والمهن المختلفة. وعن طريق هذا التنظيم كانت الدولة تتحكم بالرقابة على الأسواق.

لقد ذكر الفارقي في (ص٧٥) من السلم التنظيمي الحرفي (شيخ سوق الطعام) في مدينة آمد (دياربكر)، وكان إسمه (عبدالبر) وهو الذي دبّر مؤامرة إغتيال الأمير أبي علي حسن بن مروان سنة (٣٨٧هـ = ٩٩٧م)[١].

وهذا دليل على وجود هذا التنظيم في الدولة الدوستكية. وكان هذا التنظيم موجوداً في الدولتين العباسية والفاطمية، وقد أخذه المسلمون من الدولتين الساسانية والبيزنطية وخاصة من الأخيرة. هذا مع العلم بأن المحتسب، كأحد الحكام من الدرجة الثانية، كان موجوداً في العهد الجمهوري الروماني قبل الميلاد[٢].

وقد ألفت عنها (أي عن الحسبة) كتب خاصة متعددة ماعدا مواضيع أخرى بخصوصها في المصادر التاريخية المتفرقة. ولو كان في تاريخ الدولة الدوستكية عدة كتب مثل تاريخ الفارقي لعلمنا منها الكثير مما نجهله عنها الآن.

إن من أهم واجبات (شيخ السوق) في التنظيم الحرفي النقابي، هو تمثيل أهل السوق في القضايا

(١) في تاريخ إيليا برشنايا المطبوع ص٢٠١، أن عبيدالله بن دمنه قتل عبدالبر يوم الإثنين الرابع من شوال سنة (٣٨٩هـ) اي في السنة التي تلت مقتل ابي علي.

(٢) راجع، مدخل الى تاريخ الرومان وأدبهم وآثارهم ص٥٦، ٥٨، ٦٠، تأليف آ. بتري.

العامة وتحديد الأسعار عند الحاجة بالتشاور مع المحتسب أو (النقيب). وكان له الحكم على أبناء صنعته والموافقة على إنتماء الشخص الى طائفته ومنحه إجازة ممارسة المهنة، إذا رآه صالحاً لذلك. إذ لم يكن للشخص حق الإنتماء وممارسة المهنة وفتح دكان له بدون إجازة من الشيخ. ويكون إنتخاب الشيخ من قبل أعضاء الحرفة وتعترف السلطة بتعيينه أو كان يعينه المحتسب. أما أصحاب الصناعات فلم يُقبل إنتماؤهم الى صنف صناعاتهم إلا بعد أن يكونوا قد تعلموا أسرار الصنعة وبعد إجتياز إختبار من قبل خبرائها. فإذا رضي الخبير بقابلية الشخص يذهب الى شيخ السوق (شيخ المهنة) والنقيب. وبعد ذلك يطلب الشيخ حضور أستاذه للتحدث معه بذلك الصدد ومناقشة الأستاذ حول قابلية ذلك الشخص، فإن رضي الأستاذ بإنتمائه الى أهل الصنعة طلب موافقة جد الشخص إن كان حياً، لأن العقد كان يتم بإسم الجد. وإذا حصلت الموافقة من الجميع يحدد يوم تقام فيه وليمة من قبل الشخص كان يحضرها أبناء تلك الصنعة. وإن كان المذكور فقيراً يساعده النقيب في إقامة الوليمة (الحفلة). وأثناء الوليمة، وبعد حصول الشخص على (العهد) أي التفويض من أستاذه بالدخول في المهنة، كانت تجري مراسيم (الشدّ)، وفيها كان النقيب يشد حزاماً أو منديلاً أو قطعة قماش حول كتفه أو وسطه أو رأسه ويعقدها بأربع عقد ولكل عقدة مراسيمها الخاصة(٣).

(٣) صباح إبراهيم الشيخلي، الأصناف في العهد العباسي، نشأتها وتطورها، ص٧٧-١٠٩ وص١٢٠-١٢٣. ذكر الشيخلي بأن العقدة الأولى هي للأستاذ (أسطه) الذي يقرأ أثناء عقدها تعريفاً للشخص مع آيات قرآنية. والعقدة الثانية هي للجد ويقرأ خلال عقدها كلاماً على التبريك مع الايات القرآنية. والعقدة الثالثة هي لل(پير) التي يعقدها النقيب والذي يقرأ خلال عقدها كلاماً متعارفاً للپير مع آيات قرانية. والعقدة الرابعة هي عقدة الإمام علي ويعقدها النقيب كذلك، ويذكر خلالها الكلام الخاص بالإمام ثم يقرأ آيات من القرآن. والعقدتان الأخيرتان أحدهما بإسم الحسن والأخرى بإسم الحسين. وأما (الپير) فهم الأنبياء. فالنبي داود پير الحدادين وإبراهيم پير البنائين ونوح پير النجارين وإدريس پير الأطباء وعيسى پير الصباغين وشعيب پير النساجين ومحمد پير التجار. ولاشك أن هذه التقاليد الموجودة في الدول الإسلامية، كانت موجودة في كُردستان أيضاً. فمثلاً كان الحدادين في مدينة السليمانية يعلمون، كما سمعت من الكثيرين منهم، أن پير مهنتهم هو النبي داود، ولذلك فالسندان شبه مقدس لديهم ويسمونه (دەزگا) ويقسمون به، ويقولون بأن سبب التقديس أو الإحترام الزائد قد نشأ من كون السندان جاء من النبي داود وورثه الحدادون منه. وفي ١٩٩٩/٩/٨ سافرت والمهندس السيد حميد ملا صادق الكوبي (المنسوب الى مدينة كويه - كويسنجق) مع البناء أسطة عمر من السليمانية الى كويسنجق، حيث أنيطت بي مهمة الإشراف على ترميم قيصريتين فيها من الناحية التراثية. كنت والأسطة عمر(وأبوه اسطه عباس وجده اسطه حسن فاطمة غزالي من أفضل بنّائي السليمانية) نتحدث عما يتعلق بأعمالهم فكنت أذكر له أسماء الپير. فسبقني في القول وقال إن پيرنا نحن البنائين هو النبي إبراهيم. وأضاف أن بلدية السليمانية حتى سنة ١٩٥٨ لم تكن تسمح لأحد بممارسة مهنة البناء ما لم تكن له إجازة ممارسة المهنة من البلدية. وان رئيس البنّائين كان (معمارباشي البلدية) أي رئيس جماعة البنائين من قبل البلدية، وهو الذي كان يرشح الشخص لأن يكون بنّاءً كي تمنحه البلدية الإجازة. إذ أن (معمارباشي) كان يعني (شيخ البنائين) أو النقيب أي نقيب البنّائين. وقد أضاف السيد حميد وهو ماهر في الشؤون الإدارية أن هذا القانون لا زال موجوداً في نظام البلدية ولم تلغه الدولة العراقية، ولكنه تعرض الى الإهمال بعد إنتهاء العهد الملكي. أما تقليد (الشد) فلم يسمع به الأسطه عمر ولم أسمعه أنا من البنائين المعمرين الذين توفوا. والدولة العراقية كانت قد أخذت ذلك القانون من الدولة العثمانية التي أخذته بدورها عن الدول الإسلامية التي سبقتها. وقد وجدت إجازة من العهد العثماني بالتركية العثمانية للمرحوم حاجي محمود موتابچي بالسليمانية. بخصوص مهنة موتابچية إرثية كانت لأبيه أو جده ثم أدرج فيها إسمه أيضاً. وقد سمعت ان المرحوم الدكتور أمين موتابچي قد نشر الإجازة، وعندي نسخة مستنسخه على النسخة الأصلية لإجازة مهنة الطب الشعبي لحمه نادر الجراح بالتركية العثمانية. بخصوص الشيخ، راجع الدوري، مقدمة في الإقتصاد العربي، ص٦٨.

لقد سمى الماوردي في الأحكام السلطانية (ص٢٢٧) الشيوخ بـ(العرفاء - عرفاء الأسواق). وذكر الصابي وجود عامل على سوق الغنم وآخر على سوق البطيخ وآخر على دار القطن وآخر على سوق الرقيق وغيرها(٤).

وهكذا يتضح لنا أن إسم (الشيخ) قد تغير حسب تغير الأقاليم والفترات الزمنية. وكان من واجبات الشيخ أيضاً الإهتمام بنظافة السوق ومنع العاملين فيه من الغش وتهيئة أهل السوق للمشاركة في المناسبات والإجتماعيية، كتزيين السوق في المناسبات البهيجة وإغلاقها في المناسبات المحزنة.

كان التجار ضمن هذا التنظيم الحرفي في الدول الإسلامية يتمتعون بمكانة مرموقة، وفي مقدمة هؤلاء كان يأتي تجار البز (الأقمشة)، حيث كانوا ضمن الطبقة الخاصة حتى إنهم كانوا يشتركون في مبايعة الخلفاء الجدد. وكان هؤلاء التجار أصحاب ثقافة، حتى إن بعض المؤرخين قد ذكر بأن بعض البزازين كانوا فقهاء، ويلعبون دوراً في الحياة السياسية. وكانت السلطة تعترف بمكانتهم الإجتماعية(٥).

وكان (عبدالبر) يمتلك علماً في الفقه، على ما يتضح لنا من كلام الفارقي (ص٥٧). حيث ذكر بأنه كان يجلس كل يوم (أي في مدينة آمد) للقضاء والشهود. وذكر الفارقي من التجار (ص١٦٥-١٦٦) التاجر أبا بكر بن جري، وكان ذا مال ويسار وقد حفر قناة ماء من رأس العين الى العاصمة فارقين وصرف عليها أكثر من خمسين ألف دينار. ويفهم من كلامه أنه كان رجلاً ورعاً و(كان شيخاً مقدماً من التجار وكان سمساراً) أي شيخهم المقدم أي رئيسهم أو نقيبهم في سلم التنظيم الحرفي هذا، وكذلك وصفه لإبن بهات بالمتقدم بحيث أن كلاً منهم كان رئيس التجار أي نقيبهم في فترة ما، علماً أن الفارقي ذكر اسم التاجر (إبن البهات) ووصفه بأنه (كان متقدماً وسمساراً من جملة العدول والشهود)، أي من هيئة القضاء (المحكمة) الدائمة. وكان بحكم وظيفته ذو معرفة بالفقه الإسلامي وأحكامه وبتنظيم السجلات ومتصفاً بالعدل والأمانة. وقد ربح التاجر المذكور في يوم واحدل خمسمائة دينار بيزنطي من بيع الخام. وهو رقم كبير قلما يوجد مثيل له في التاريخ الإسلامي نظراً للقوة الشرائية الفائقة للدينار في ذلك العصر، كما ذكرنا في موضوع (العدالة) والتجارة. وقد أعطانا الفارقي في (ص١٠٠) إسم تاجر آخر من ذوي المكانة الإجتماعية المرموقة في العاصمة فارقين هو (أبو الحسن أحمد بن وصيف البزاز)، وكان من كبار تجار (سوق البَزّ) ومن جملة العدول أيضاً ومن أصحاب الثقافة كإبن البهات. ومما يدل على مكانة العدول (الشهود) الإجتماعية والمشاركة في الحياة السياسية للدولة أيضاً، هو المشاركة في تنصيب الأمراء الدوستكيين. فقد حضر التجار مراسم تنصيب نصرالدولة خلفاً لممهدالدولة بمدينة أرزن سنة (٤٠١هـ)، وحضروا مراسم تنصيب نظام الدين(٦).

(٤) حمدان الكبيسي، أسواق بغداد، ص٣٢٣.
(٥) حمدان الكبيسي، أسواق بغداد، ص٣٤٦-٣٤٧.
(٦) الفارقي، ص٩٥، ١٧٨.

رغم أنه لم تصل إلينا معلومات كثيرة عن الحركة التجارية وأسماء التجار ومقدار ثرواتهم، إلا أن الفارقي اشار في (ص١٦٦) الى توسع العاصمة فارقين السكاني في عهد نصرالدولة وتنشيط الحركة التجارية فيها، ومجيء تجار أجانب للسكن فيها وإنتشار الغنى فيها، حين قال:"وإنغمرت ميافارقين (أي إزدحمت بالسكان) وقصدها الناس والتجار من كل الأطراف وإستغني الناس في أيامه وكانت من أحسن الأيام ودولته غير الدول" أو دولته خير الدول. وقد أشرنا في بداية موضوع الحياة الإقتصادية الى كلام الطبيب إبن بطلان حول توفر الأعمال وإستغناء الناس في هذه الدولة الكُردية. ونظراً للتنظيم الحرفي في الدولة وتوسع التجارة والحرف والمهن، فإن الأسواق توسعت وتعددت بتنوعها، وكان لأصحاب كل صنف سوق خاصة بهم. وقد ذكر الفارقي أيضاً في (ص١٤١) بأن نصرالدولة بنى في مدينة النصرية (الأسواق)، حيث ذكرها بصيغة الجمع، وأن تعدد تلك الأسواق كان حسب تعدد الحرف والمهن.

وذكر الدكتور أديب معوض في كتابه (الأكراد بين الأمس واليوم، ص٤٣): أن أسواق مدينة آمد (دياربكر) في العهد الدوستكي كانت تزيد على الستين سوقاً. أما الأسواق التي إطلعت على أسمائها فهي:

١- سوق الطعام بآمد

٢- سوق البزّ في فارقين، الذي كان يتمتع بنظافة وإحترام خاص، حيث يمنع أو يُكره دخول الشخص فيه راكباً كما هو واضح من كلام الفارقي في (ص٦٦).

٣- سوق القبة في فارقين، الذي ذكره الفارقي في (١٦٥)، وقال الدكتور سوادي عبد محمد أنها كانت قيصرية (مقبية)(٧).

وقال السيد صباح إبراهيم الشيخلي، أن هذا النوع من الاسواق (أي القيصرية) أخذها المسلمون من البيزنطيين وهي منسوبة الى(قيصر) وتعني السوق الامبراطوري في الاصطلاح السوري والفلسطيني والمغربي ايضاً(٨).

وكانت سوق القبة في فارقين تقع بالقرب من الجامع الكبير من الطرف الغربي وبإتجاه الشمال قليلاً. وقد أجرى التاجر الكبير أبو بكر بن جري قناته المائية الى هذا السوق ومنها الى الجامع الكبير.

٤- سوق العطارين: وكانت تحتوي على حوانيت (صيدليات) للأدوية الطبية، وكان حانوت الطبيب أبي سالم، الذي أصبح وزيراً للأمير ناصرالدولة منصور تقع في هذه السوق(٩)، على ما قاله الفارقي في (ص٢٠٦). وقال د. سوادي ان إبن شداد سمى السوق المذكورة بـ(سوق العديم)(١٠) وكانت تحتوي على المعاجين والأشربة والسكر وما شابه ذلك.

(٧) د. سوادي، الأحوال الإجتماعية والإقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية، ص٣٢٤.

(٨) الشيخلي، الأصناف في العصر العباسي، تنشأتها وتطورها، ص٣٩ وهو كتاب قيّم جداً.

(٩) لفظ السوق يأتي مذكراً ومؤنثاً أيضاً.

(١٠) الدكتور سوادي، الأصول الإجتماعية والإقتصادية في الجزيرة الفراتية، ص١٣٩.

٥- سوق الخيل: وكان خاصاً ببيع وشراء الخيول، وكان يقع في المحدثة في أطراف جامع بني مروان، على ما ذكره إبن شداد(١١).

٦- سوق العجل: ذكره الطبيب إبن بطلان في (دعوة الأطباء) على ما مر ذكره في بداية موضوع الحياة الإقتصادية، ومن المحتمل أن يكون ذكرها على سبيل الكناية.

٧- العَرَصة: ذكرها الفارقي في (ص٢٤٦) وقال أن محمد بن صافي كان غلام البيع في العرصة بفارقين، والعرصة هي ميدان (مزادخانه على ما يسمى حالياً) للبيع والشراء، وهي من السوق أيضاً. وقد أورد اليونيني في (ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٢٦٢) إسم سوق (العطر) بفارقين على مانقله عنه الدكتور سوادي(١٢)، وقال بأنها كانت تحتوي على حوانيت (دكاكين) العطور والبخور واللاذن والمَحلَب(١٣).

ويحتمل أن سوق العطر هذا كان موجوداً في العهد الدوستكي، حيث قال في (ص٣٢١): "يمكن القول أن أسواق مدينة الجزيرة في القرن السادس الهجري كانت إستمراراً لأسواق القرنين الرابع والخامس الهجريين".

وفي القرون الوسطى كانت بعض الأماكن أسواقاً لأيام معينة، فقد ذكر إبن جبير في رحلته (ص١٩٤) أن سوق (دنيصر) (قزل تپه) للبيع والشراء كان في أيام السبت والأحد والخميس والجمعة. ويسمون هذا السوق الحافل الذي يجتمع فيه سكان الجهات المجاورة والقرى المتصلة بـ(بازار)، وقد وصل إبن جبير إليها يوم الخميس الثالث من ربيع الاول سنة (٥٨٠هـ = ١١٨٥/٦/١٤م). ومعلوم أن (بازار) إسم كُردي للسوق وسنذكر أن مدينة (دنيسر) من تخطيط الدولة الدوستكية حسب رأينا، كما إن الأوقات المحددة لإقامة سوقها كانت تعود الى عهدها على الأغلب.

(١١) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة (ورقة ٧٢).

(١٢) سوادي، ص٣٢٤.

(١٣) في تذكرة أولي الالباب للطبيب داود الانطاكي، أن شجرة اللاذن تشبه شجرة الرمان، ويستخرج من بذرو اللاذن طيب يسمى نوع منه بالعنبري والآخر بالخلوق. أما الخلوق كما جاء في المنجد؛ نوع من العطر أعظم أجزائه الزعفران. والمَحلَب على ماجاء في تذكرة الأنطاكي شجرة تنبت في البلاد الباردة ورؤوس الجبال ويكبر كالبطم ولها أوراق مستطيلة طيبة الرائحة وهي دواء لعدة أمراض كالخفقان وضيق النفس والكبد والطحال والكلي وعسر البول والحصي.